المقامات البلاغية لقوله تعالى

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾

في القرآن الكريم

وأثرها في اختلاف النظم القرآني

إعداد

أ.د: تامر محمد أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تحمل عنت المشركين وجحودهم، ومع ذلك دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمره ربه، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم بإحسان .

وبعد،،،

فهذا بحث متواضع يدور حول ست آيات من كتاب ربنا، بينها رحم حميم من حيث اللفظ ومن حيث الموضوع، أما رحمها من حيث اللفظ فيتمثل في صدرها، حيث بدأت جميعها بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ وأما رحمها من حيث الموضوع فيتمثل في نقلها صورة حسية لما كان يعتري المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، سواء كان رد فعلهم عند سماع القرآن قولا أو فعلا أو صفة نفسية تعتري وجوههم.

والواقع أن القوم على الرغم من شهرتهم بالبيان، وعجزهم عن معارضة القرآن، إلا أنهم كانوا يكابرون ويعاندون عندما يتلى عليهم، فتراهم يطالبون رسول الله بتغييره أو تبديله، وربما سخروا منه ومن أتباعه معيرين لهم بفقرهم ورثاثة هيئتهم، كما تراهم وقد تغيرت وجوههم النكراء فرقا من آيات الذكر الحكيم، وربما يهمون بالسطو بمن يتلو عليهم القرآن ،وتراهم كذلك يثيرون نعرة صدهم عن دين آبائهم ومن ثم يصفون القرآن بالكذب والسحر، وتارة تراهم يهربون من المواجهة الحاسمة بتعجيز النبي والمؤمنين بطلب إحياء آبائهم إن كانوا صادقين.

إنها محاولات العاجز ومهاترات المتردد وردود أفعال العابثين الهازلين.

وقد وقع اختياري لهذا البحث لما بين آياته من رحم في اللفظ والموضوع كما سبق، فأردت أن أبرز تعدد المقامات البلاغية مع لحمة النسب القوية بين الآيات، ثم مايترتب على ذلك من تنوع الجواب والرد واختلاف النظم.

وقد سرت في بحثي وفق المنهج التحليلي المتتبع لخصائص النظم وسمات الكلام.

وجاءت خطة البحث في مقدمة ودراسة كاشفة للمقامات البلاغية للآيات وخصائص نظمها من خلال التحليل البلاغي، ثم جاءت الخاتمة فذكرت فيها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث ، ثم ذيلت البحث بثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات.

تحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهج البحث والخطة التي سرت عليها .

ثم عرضت الآيات قبل البدء بدراستها لتكون مجملة بين يدي القارئ.

وجاءت الدراسة البلاغية للآيات الست، مشتملة على ستة مقامات درست كل آية في مقامها، وبينت المقصد الأعظم من السورة التي تنتمي إليها، ثم علاقة الآية بمقصد السورة، ثم علاقة الآية بما قبلها ثم شرعت في التحليل البلاغي .

وقد بدا لي أن أتبع تلك الآيات الست بآيتي الأنفال ولقمان، الأولى منهما بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا ﴾[الأنفال: ٣١] **بدون** «بَيِّنَٰتٍ» **والثانية بدأت بقوله تعالى:** ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾[لقمان: ٧] **بإفراد الضمير في** «عَلَيْهِ» **وبإسقاط** «بَيِّنَٰتٍ» **كذلك، ولم أتعرض**

لتحليل الآيتين بلاغيًا ؛ لأنهما ليستا داخلتين في موضوع البحث، وإنما بينت سر إسقاط «بَيِّنَتٍ» فيهما، وإفراد الضمير في آية لقمان تبعًا لمقام كل آية.

وبعدُ،،،

فهذا جهدي أقدمه بين يديك أيها القارئ الكريم أستاذًا ومعلمًا وطالبًا راجيًا من الله . تعالى . أن ينال رضاه أولًا، ورضاكم ثانيًا، وطوبى لمن أهدى إليَّ عيوبي، ويعلم الله بما بذلته فيه من جهد، وما عانيته من مشقة، لكنه جهد المحبين، وعناء العاشقين لخدمة كتاب ربنا، نسأل الله الإخلاص في القول والعمل وأن يجعل هذا العمل المتواضع في ميزان حسناتنا وحسنات والدينا رحمهما الله تعالى فهو حسبنا ونعم الوكيل، والله من وراء القصد.

﴿عرض الآيات﴾

- **الأولى**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾[يونس: ١٥]

- **الثانية**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم: ٧٣].

- **الثالثة**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج: ٧٢].

- **الرابعة**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ: ٤٣].

- **الخامسة**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الجاثية: ٢٥].

- **السادسة**: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[الأحقاف: ٧].

﴿المقام الأول﴾

طلب المشركين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله

في هذا المقام يستمع المشركون إلى رسول الله ﷺ أو المؤمنين وهم يتلون عليهم آيات الله البينات، فيتعنتون ويطلبون الإتيان بقرآن آخر لا يذم آلهتهم، أو تبديل هذا القرآن الذي لا ينقطع عن ذمهم، وذلك بتبديل بعض أوصافه وآياته التي لا تعجبهم، فيلقن الله رسوله الكريم الرد عليهم بأن الأمر ليس بيده وإنما مرد ذلك إلى الله، فليس لي أن أعصيه وليس علي إلا اتباع منهج الله.

- يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾[يونس: ١٥]. **وقد رد الله عليهم في الآية التالية بقوله تعالى:** ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦]

ـ المقصد الأعظم لسورة يونس عليه السلام:

بدأت سورة يونس عليه السلام بالحديث عن التعجب من حال الناس والإنكار عليهم حين بعث الله لهم رسولًا من بني جلدتهم لينذر الكافرين ويبشر المؤمنين فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[يونس: ٢].

وهي سورة مكية وآياتها تسع ومائة ،والقرآن المكي، له طبيعة خاصة إذ يؤكد على حقيقة العبودية لله الحق، وتعريف الناس بخالقهم الذي ينبغي أن يعبدوه.

والسورة الكريمة تواجه مشركي مكة في موقفهم من القرآن وتكذيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنكار الوحي والتشكيك فيه وطلب تبديل القرآن أو المجيء بقرآن غيره ، والتدليل على صحته وصدقه بخارقة مادية محسوسة . (١).

«ومقصودها: وصف الكتاب بأنه من عند الله، لما اشتمل عليه من الحكمة، لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دالّ بلا ريب على أنه واحد في ملكه، لا شريك له في شيء من أمره» (٢).

وقد تعرضت السورة الكريمة لقصة يونس عليه السلام مع قومه فقد كشف الله عنهم العذاب حين آمنوا، وفي ذلك بشارة لأهل مكة بالخير إن اتبعوا رسول الله، وإنذار لهم بالشر والعذاب إن خالفوه.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣ / ١٧٤٥، ١٧٤٦ – سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي «المتوفى: ١٣٨٥هـ» – دار الشروق – بيروت – القاهرة – الطبعة السابعة عشر – ١٤١٢ هـ

(٢) انظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ١٦٤/٢ ويُسَمَّى: «المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى» لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي «المتوفى: ٨٨٥هـ» مكتبة المعارف – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م.

ـ علاقة الآية بمقصود السورة:

لا شك أن العلاقة قوية بين الآية الكريمة وبين مقصود السورة فهي تعمل في نفس السياق الذي تسير فيه سورة يونس عليه السلام من مواجهة الكافرين ببطلان حججهم الواهية وإنكارهم القرآن الكريم وتبين أن طريق النجاة إنما يكون في اتباع منهج الله، وأن المكابرة بالجحود والإنكار والعصيان إنما هي طريق الهلاك والعذاب.

ـ علاقة الآية بما قبلها:

الملاحظ على سورة يونس عليه السلام من بدايتها أنها توجه إنكارًا شنيعًا وتعجيبًا من حال هؤلاء المنكرين لنبوة الرسل مع أن العقل يقتضي إرسال الرسل والشواهد الكونية تقتضي صدقهم، فنلاحظ هنا أن السورة الكريمة تخاطب العقل وتحرك في الإنسان التفكير وتدعوه للتأمل والتدبر:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس: ٣].

﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾[يونس: ٥].

وهذا يتناسب مع قوله تعالى في الآية موضوع الدراسة:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾[يونس: ١٥].

فالآيات بينات واضحات جليات الحجة قاهرة في دلالتها على صدقه لا تحتاج إلا إلى عقل خلا من العناد والكبر.

فعلاقة الآية بما سبقها تتمثل في التركيز على خطاب العقل والسخرية من

هؤلاء الذين ظهرت أمامهم الحجج والبراهين واضحة كالشمس في وضح النهار ثم هم مع ذلك يلغون عقولهم ويعاندون ويكابرون.

ثم إن الآيتين السابقتين على الآية موضوع الدراسة وهما قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[يونس:١٣ ١٤] **أشارت الأولى منهما إلى أن هلاك الأمم السابقة إنما كان بسبب ظلمهم وتكذيبهم أنبياءهم وعدم إيمانهم، وأشارت الثانية إلى استخلاف الله لأهل مكة بعد تلك الأمم امتحانًا لهم لينظر كيف يعملون،وفي هذا إشارة صريحة إلى أهل مكة أنهم إن ظلوا على تكذيبهم رسول الله ﷺ فسيحل بهم ما وقع بأسلافهم، وتلك سنة الله في خلقه.**

- التحليل البلاغي:

جاءت الآية الكريمة هنا موصولة بالواو عطفًا على قوله تعالى في أول السورة: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس: ٢] **للتوسط بين الكمالين فكلا الجملتين خبرية والوصل يشير إلى تغلغل العناد في حنايا القوم وانطواء نفوسهم على كبر دفين وانطباعهم على الشقاوة والصلف والغرور.**

قال في نظم الدرر: «ولما تقدم أن من قضى بشقاوته لا يتأتى إيمانه بآية من الآيات حتى تنزل به سطوته وتذيقه بأسه ونقمته، وكان القرآن أعظم آية أنزلت إلى الناس لما لا يخفى، أتبع ذلك عطفاً على قوله:﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس: ٢] **بقوله بيانًا لذلك:** «وَإِذَا تُتْلَىٰ»، **ويجوز عطفه على**

« ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ » - الآيـة - والالتفـات إلـى مقـام الغيبـة للإيـذان بـأنهم مـستحقون للإعـراض لإسـاءتهم الخلافـة، والموصـول بـصلته فـي قولـه «قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا » في موضع الضمير تنبيهًا على أن هذا الوصف علة قولهم» (١).

فالإمام البقاعي - رحمه الله - يعرض لنا وجهًا آخر من وجوه الوصل حيث تكون الآية معطوفة على سابقتها مباشرة، والوصل كذلك هنا للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، فبعد أن بينت السورة حال الأمم السابقة في الهلاك بسبب جحودهم وتكذيبهم أنبياءهم، بينت هنا أن الله استخلفكم يا أهل مكة لينظر كيف تعملون ولكنهم ساروا على طرائق أسلافهم فإذا تليت عليهم آيات القرآن لم تعجبهم وطالبوا النبي بتبديلها .

وقد تحدث عنهم في الآية السابقة بطريق الخطاب حيث كانوا أهلًا للخطاب فقد استخلفوا في الأرض بفطرتهم الصافية لكنهم سرعان ما دنسوها بجحودهم وتكذيبهم حين تليت عليهم آيات الله فاستحقوا الإعراض عنهم ومن ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة.

وملمح بلاغي آخر يتبدى في المجيء بالاسم الموصول وصلته: «ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا »ليبرز علة تكذيبهم النبي ﷺ وطلبهم تغيير القرآن .

وإن كان الوجه الثاني للوصل يترجح عندي لقرب المعطوف عليه من

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥٣/٤ لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي «المتوفى: ٨٨٥هـ» - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

المعطوف أولًا،وللتناسب بينهما في المعنى حيث ذكر استخلافه لهم، ثم أعقب ذلك ببيان عدم قيامهم بحق الاستخلاف.

وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، فهي مضافة لجملة «تُتْلَىٰ» منصوبة بجوابها :

«قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا »، ومن المعروف أنها تفيد التكثير والقطع قال الخطيب: «والأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه كما تقول: إذا زالت الشمس آتيك» (١).

ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ كان يتعاهدهم بتلاوة القرآن كثيرًا ويلح عليهم في ذلك، طمعًا في إيمانهم، ويؤكد هذا المعنى مضارعية الفعل «تُتْلَىٰ» حيث تفيد التجدد والحدوث ،وفي هذا بيان لحرصه ﷺ على إيمان قومه، وبناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله يشير إلى أن التلاوة قد تكون من الرسول أو من غيره، فالإنكار لا يتعلق بالتالي وإنما يتعلق بالمتلو، كما قال ربنا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣].

والجار والمجرور «عَلَيْهِمْ» يتعلق بالتلاوة، وما في على من معنى الثقل يشير إلى ثقل القرآن عليهم، فهو ينزل عليهم كالصواعق المرسلة يخترق آذانهم ، وجاء المسند إليه وهو نائب الفاعل «ءَايَاتُنَا » معرفا بالإضافة إلى ضمير الله عز وجل وهو «نا» العظمة، إشعارًا بقيمة هذا المتلو عليهم وعظم قدره، وعلو مرتبته فهي آيات الرحمن الذي يستحق العبادة دون سواه.

---

(١)انظر: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني المتوفى «٧٣٩»: صـ١٢١ تحقيق الدكتور: عبد القادر حسين – مكتبة الآداب.

وقد وصف الآيات بأنها بينات أي واضحات جليات الحجة لا يمكن لعاقل أن يكذبها، قال في التحرير والتنوير: «ووصف الآيات بـ «بَيِّنَٰتٍ» لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها» (١).

وهذه الصفة «بَيِّنَٰتٍ» لازمة لكل شواهدنا فبداية كل آية: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ» فهي قاسم مشترك بين كل الآيات في مطالعها، وهذا يشير إلى الترابط والتلاحم بين تلك الآيات، وأنها جميعًا كانت على قدر من الوضوح والجلاء يكفي لأن يقتلع جذور الشك من قلوب من يستمعون إليها لولا عمايتهم عن الهدى والرشاد.

وما أن يبدأ رسول الله ﷺ في تلاوة القرآن حتى يبدأ الكافرون بالرفض القاطع تكبرًا وعنادًا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

- قال الإمام الزمخشري:

«غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا ائْتِ بِقُرْآنٍ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها» (٢).

وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال مثلًا: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ..لكنه عبر بالاسم الموصول: «قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا» خروجًا بالكلام على

---

(١)انظر: التحرير والتنوير: ١١٦/١١ «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي «المتوفى: ١٣٩٣هـ» - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤ هـ.

(٢)انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢: ٣٣٤ - أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله «المتوفى: ٥٣٨هـ» - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ هـ

خلاف مقتضى الظاهر حيث وضع المظهر موضع المضمر، ليشير إلى أبرز صفاتهم وعلة إنكارهم وهي تتمثل في جحودهم لقاء الله.

قال في البحر المحيط: «ونبه تعالى على الوصف الحامل لهم على هذه المقالة، وهو كونهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء على ما اقترفوه» (١).

ووضع المظهرِ موضع الضميرِ له إيحاءاتٌ بلاغية متعددة لاسيما إذا اقتضاه المقام - كما هنا - حيث يظهر «وحيُ الكلمةِ وعملُها بما يثيره لفظها من شئونٍ في النفسِ لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فالضمير لا يعملُ في العقول عمل الإفصاح والتكشيف». (٢)

ولذلك جاء المسند إليه معرفا بالموصولية ليشير إلى تواطؤهم على تكذيب القرآن الكريم، وصلة الموصول: «لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا» ومعناها «أحد وجهين: الأول: لا يخافون عقابنا لأن الرجاء يقام مقام الخوف ومثله قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣] قيل معناه: لا تخافون لله عظمة، والوجه الآخر: لا تطمعون في ثوابنا كقولهم تاب رجاء لثواب الله وخوفًا من عقابه» (٣).

هذه الصلة تشير إلى جواب الشرط وتوميء إليه فإذا كانوا قد انتفت لديهم الطماعية في ثواب الله والخوف من عقابه فلا شك أنهم لن يؤمنوا بكلامه .

---

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير: ٢٣/٦ – أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي «المتوفى: ٧٤٥هـ» تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – الطبعة: ١٤٢٠ هـ

(٨) انظر: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د/ محمد محمد أبو موسى: ٢٤٧، ٢٤٨ مكتبة وهبة – الطبعة الخامسة – ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص: ٣٧٤/٤ – أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي «المتوفى: ٣٧٠هـ» تحقيق: محمد الصادق قمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤٠٥ هـ.

«ودخول «لَا» النافية على الفعل المضارع جعل النفي للاستقبال» [١].

ومعنى ذلك أنه قد سبق في علم الله عدم إيمانهم، فلا أمل في رجائهم لقاء الله، وتلحظ هنا أنه اختار تلك الصلة على وجه الخصوص:«لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا » ليسير على نفس النسق الذي بدأت به السورة في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٧].

ولفظ الرجاء يشير إلى أن العبد ينبغي له أن يظل متمسكًا بباب الرجاء فهو الأمل في النجاة، وهو الطريق للفلاح.

وإضافة اللقاء إلى «نا» العظمة وهي ضمير الله ﷻ توحي بهول هذا اللقاء وعظمته وأنه جدير بأن يتهيأ له العبد بما يقدمه من عمل صالح، كما أن اللقاء غالبًا ما يسبق بموعد، والموعد هو يوم القيامة: فهو يشير بمادته إلى حقيقة الساعة وصدقها.

وجاء مقول القول:«ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ »وأو «تقتضي التخيير» [٢].

والفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله:«أن الإتيان بغيره لا يقتضي رفعه بل يجوز بقاؤه معه وتبديله لا يكون إلا برفعه ووضع آخر مكانه أو شيء منه» [٣] .

وقد خاطب الكفار رسول الله ﷺ بفعل الأمر «ائت» والغرض من الأمر التعجيز، فكان سؤالهم لذلك على وجه:«التعنت والتحكم إذ لم يجدوا سببًا آخر يتعلقون به» [٤].

وفي اختيارهم فعل الإتيان تناقض بين غرضهم وهو تعجيز رسول الله ﷺ، وبين شعورهم بسهولة القرآن وأريحيته وسلاسة ألفاظه ومعانيه، فمن المقرر أن الإتيان: «مجيء

---

(١)انظر: الجنى الداني في حروف المعاني :٢٩٦ للحسن بن قاسم المرادي تحقيق: د. فخر الدين قباوة والأستاذ: محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٢)انظر:الجنى الداني: ٢٢٨.

(٣)انظر:أحكام القرآن للجصاص: ٣٧٤/٤.

(٤)انظر: السابق والصفحة.

بسهولة.ويتصل بالسهولة معنى الاستجابة والمطاوعة والمواتاة» [1].

فقد فُضحوا في سؤالهم، وانكشفوا وأفصحوا عن أسرارهم دون أن يشعروا.

والباء في قوله: «بِقُرۡءَانٍ » للمصاحبة وقد سموا ما يأتي به من قبل نفسه قرآنًا مشاكلة لقرآنه الأول المتلو عليهم،والتنكير يفيد الشيوع والعموم، أي قرآن أيّ قرآن، فالمهم عندهم أن يأتي بغير ما يسمعون، أو أن يبدل منه ما لا يعجبهم من آيات الذم لآلهتهم والوعيد لهم بالعذاب، ووصفوا قرآنهم بصفة الغيرية «غير هذا» وهي موغلة في الإبهام، وهذا يشير إلى غموض غايتهم وتشويش عقولهم عند سماع القرآن وانطواء نفوسهم على خبث دفين، ولذلك أضافوها إلى اسم الإشارة «هَٰذَآ » وهو إشارة إلى القرآن الكريم وتلمح في اسم الإشارة محاولتهم ذم القرآن وتقليل شأنه وتحقيره، تقدس كتاب ربنا عن ذلك ولعن الكافرون بما قالوا.

وهم في طلبهم الغيرية يقصدون قرآنًا غير ما نسمعه تمامًا مع بقاء هذا القرآن الذي تتلوه تتعبد به لنفسك ولأتباعك ،فإن لم تفعل ذلك فبدل آيات الوعيد فيه والذم لنا ولآلهتنا «أَوۡ بَدِّلۡهُ »، «والتبديل هنا هو في الصفة، وهو أن يزال بعض نظمه بأن يجعل مكان آية العذاب آية الرحمة» [2].

والأمر في الموضعين الغرض منه التعجيز والتلكؤ والمراوغة والرفض وعدم القبول، والتبديل هنا جزئي كما سبق ومع ذلك أوقعوا الفعل على ضمير القرآن كله «أَوۡ بَدِّلۡهُ » للإشارة إلى تبرمهم منه إجمالًا، وإمعانًا منهم في ذمه والإعراض عنه هكذا بضمير الغائب.

وهكذا يظهر تعنت الكافرين مع رسول الله ﷺ ومحاولة تعجيزه والاستهزاء به،

---

(١)انظر: الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم: ١٢ د. محمود موسى حمدان – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى – ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

(٢)انظر: البحر المحيط: ٦/٢٣، ٢٤.

واحتقار ما جاء به، قال صاحب الظلال:«وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله، وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية...» [1].

وغرابة هذا الطلب العجيب وخبثه تتبدى في أنهم عجزوا هم أنفسهم مجتمعين عن الإتيان بمثل القرآن، ومع ذلك لا يعترفون بأنه كلام الله:﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل: ١٠٣] فكيف يطلبون من النبي منفردًا أن يأتي ببديل له؟.

- قال الإمام الزمخشري:

«فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: «ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ »؟ قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ويقولون: «ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا »، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادرًا عليه وعلى مثله، مع علمهم بأنّ العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز...فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل، فإمّا أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله»[2].

لكن الله ﷻ يلقن رسوله الكريم ﷺ الرد فيقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن

(١)انظر:في ظلال القرآن: ٣ / ١٧٧١.
(٢)انظر : الكشاف: ٢/ ٣٣٤.

تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ﴾ [يونس: ١٥] فيقتصر الجواب على التبديل، فلم يقل مثلًا: قل ما يكون لي أن آتي بقرآن غيره أو أبدله.... ؛ لأن الإتيان بغيره جملة، ليس في مقدور البشر فهو غير وارد أصلًا، ومن ثم كان نفيه فضولًا من القول، ولذلك سلط النفي على التبديل فقط، لأن فيه تغييرًا جزئيًا لبعض الآيات، محو آية والإتيان بغيرها، وهذا في مقدور البشر فعله، لكنه مستحيل في حقه ﷺ ولذلك قال: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

- قال في البحر المحيط:

«ولما كان الإتيان بقرآن غير هذا غير مقدور للإنسان، لم يحتج إلى نفيه ونفي ما هو مقدور للإنسان، وإن كان مستحيلًا ذلك في حقه ﷺ» (١).

وقد فصلت هذه الجملة «قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ ..» عن قوله السابق: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾«لكمال الانقطاع بلا إيهام، حيث كانت إحدى الجملتين خبرية لفظًا ومعنى والأخرى إنشاءً لفظًا ومعنى» (٢).

والغرض من الأمر هنا إرشاد النبي ﷺ إلى ما يقوله لهم في الرد على خبلهم وضلالهم، وقوله: «مَا يَكُونُ لِيٓ» أي ما يحل لي وما ينبغي تسلط النفي بما على فعل الكون ليشير إلى انتفاء ذلك حالًا ومستقبلًا وفي كل زمان ومكان ومع أي حدث مهما

---

(١)انظر: البحر المحيط: ٦/٢٣، ٢٤.

(٢)انظر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: ٤٣٩، ٤٤٠ للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى «٧٩٢هـ» تحقيق الدكتور: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

كان قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، إنما يكون ذلك كله بوحي السماء لا دخل لي فيه ولا يد لي بالتغيير بالنفي أو الإثبات أو الزيادة أو النقصان.

«وقد جاء الجواب عن اقتراحهم كلامًا جامعًا قضاءً لحق الإيجاز البديع، وتعويلًا على أن السؤال يبين المراد من الجواب، فأحسوا بامتناع تبديل القرآن من جهة الرسول ﷺ، وهذا جواب كاف، لأن التبديل يشمل الإتيان بغيره وتبديل بعض تراكيبه...

على أنه إذا كان التبديل الذي هو تغيير كلمات منه وأغراض ممتنعًا كان إبطال جميعه والإتيان بغيره أجدر بالامتناع، وقد جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو ما يكون لي أن أبدله أي ما يكون التبديل ملكا بيدي» [1].

وجاء مضمون النفي وهو اسم كان مصدراً مؤولًا من أن والفعل المضارع: «أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ» مشاكلة لكلامهم السابق، ولأن المصدر المؤول أقوى من المصدر الصريح.

«ويفهم من قوله: «مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ» أن الله تعالى يبدل منه ما شاء بِمَا شاء وصرح بهذا المفهوم في مواضع أُخر كقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾[النحل: ١٠١]، وقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا

(١)انظر : التحرير والتنوير: ١١٨/١١.

يَخۡفَىٰ﴾[الأعلى: ٦ – ٧] [١].

وقد فصلت الجملة التالية وهي قولـه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[يونس: ١٥] عـما سبقها لشبه كمال الاتصال؛ حيث أثارت الجملة الـسابقة وهـي قولـه: «مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ» سؤالًا في النفس فحواه: ولم لا يكون لك ذلك؟ فجاءت الثانيـة بمنزلة الجواب: «إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ» ففصلت عن سابقتها كما يفصل الجواب عن السؤال ؛ لشبه كمال الاتصال.

- قال في التحرير والتنوير:

«وجملة: «إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ» تعليل لجملة: «مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ» أي ما أتبع إلا الوحي وليس لي تصرف بتغيير» [٢].

وفي الجملة قصر بطريق النفي والاستثناء، حيث «قصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه» [٣].

قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، وهذا القصر يقطع مطامع المشركين

(١)انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٢ /١٥٢ لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي «المتوفى: ١٣٩٣هـ» – دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – بيروت لبنان – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

(٢)انظر: التحرير والتنوير: ١١/ ١١٨

(٣)انظر: تفسير أبي السعود « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم »: ٤ / ١٢٨– أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى «المتوفى: ٩٨٢هـ» – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

في تعنتهم بطلبهم تبديل القرآن ويسد أمامهم باب الأمل في المكر والمراوغة والاستهزاء.

ولما كان حال المشركين إنكار أن يكون القرآن كلام الله وزعمهم أنه كلام محمد ﷺ جاءت جملة القصر بطريق النفي والاستثناء لتقاوم هذا الإنكار ولتؤكد لهم هذه الحقيقة وهي أن التبديل أو التغيير ليس أمره إليه، وأنه ليس إلا مبلغًا لما أمر بتبليغه دون زيادة أو نقصان.

قال الإمام عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإنْ هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه»(١).

- ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [يونس: ١٥].

وهي جملة خبرية لفظًا ومعنى وقد فصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتصال حيث أثارت الجمل السابقة سؤالًا فحواه: وما علة امتناعك عن التبديل والتزامك بالوحي فقيل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾، ففصلت الجملة عن سابقتها كما يفصل الجواب عن السؤال.

قال الخطيبُ: «وقال السكاكيُّ: وتنزيلُ السؤالِ بالفحوى منزلة الواقع لا يُصارُ إليه إلاَّ لجهاتٍ لطيفة: إمَّا لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامُك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير

(١)انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٣٣٢ بتحقيق: محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - ط ثالثة - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرِطُ في هذا السلك» [1].

فسر الفصل هنا يتمثل في أنه أثار فضولهم للتعرف على علة هذا التمسك بالوحي والالتزام بعدم التغيير أو التبديل، قال أبو السعود: «فإنه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره صلى الله عليه وسلم على اتباع الوحي أي أخاف إن عصيته تعالى بتعاطي ما ليس لي من التبديل من تلقاء نفسي والإعراض عن اتباع الوحي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة» [2].

والمخاطب هنا منكر لمضمون الخبر فكان حق الخبر أن يؤكد بمؤكدات عدة، لكنه جاء مؤكدًا بمؤكد واحد وهو إن ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ تنزيلًا للمنكر منزلة المتردد، ووراء ذلك بيان لحالة الذهول والتخبط التي وقع فيها الكافرون، كما أن التأكيد راجع لحال المتكلم وهو إحساسه بصدق قضيته واهتمامه بخبره.

وقد فصل بين فعل الخوف «أَخَافُ » ومفعوله «عَذَابَ يَوۡمٍ» بجملة الشرط «إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي »، فجملة الشرط هذه اعتراضية بين الفعل ومفعوله والغرض منها تعليل الخوف وبيان أن سببه هو معصية الله، «وهو شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله» [3].

أي إن عصيت ربي أخاف، وقد اشترط بإن وهي تقيد الندرة والقلة ؛ وذلك لأن

---

(١)انظر : الإيضاح: ١٨٩، وانظر: مفتاح العلوم للسكاكي: ١٤٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩٠م.

(٢)انظر: تفسير أبي السعود: ٤ / ١٢٩

(٣) انظر: البحر المحيط: ٦/ ٢٤

وقوع المعصية منه ﷺ ممتنع أصلا. «فالأصْلُ في «إنْ »الشرطية عدم الجزم بوقوع معناها؛ ولذا كان موقعها الحكم النادر أي القليل الوقوع لكونه غير مقطوع به» (١).

واليوم العظيم هو يوم القيامة أو «يوم اللقاء الذي لا يرجونه وفيه إشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ﷺ عنه، وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووصفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه» (٢).

وهكذا يجيء الرد من قبل رسول الله ﷺ على المشركين ليقطع أملهم في إمكانية تبديل القرآن أوتغييره، معلنا تعلقه بوحي السماء دون سواه، ومحذرًا لهم من مغبة عصيان الله، وتكذيب آياته أو محاولة الافتراء عليه.

ولا يكتفي القرآن بتلقين النبي ﷺ هذا الرد وحده، بل يتبعه برد آخر أقوى منه: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ ﴾[يونس: ١٦].

والرد هنا يخاطب العقل ويفحمهم بالحجة ويقطع لجاجهم، فهو يؤكد فيه أن مرد الأمر كله لله أولا وآخرًا، فلو شاء سبحانه عدم تلاوتي القرآن عليكم ما تلوته، فمفعول المشيئة محذوف،لدلالة جواب لو عليه، ولوشاء عدم إعلامكم به وإخباركم لفعل «وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ»، وأنتم تعلمون صدقي ونزاهتي فقد نشأت بينكم وعشت معكم عمرًا

---

(١)انظر: الجملة الشرطية الواقعة في خواتيم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني: ٣٩ الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(٢)انظر: تفسير أبي السعود: ٤ / ١٢٩

طويلًا، أليس لكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل؟.

«ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا -وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:والفضل ما شهدت به الأعداء ...فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله!» [(١)].

وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ على عدم فهمهم ولذا ختم الآية بهذا الاستفهام الإنكاري: «أَفَلَا تَعۡقِلُونَ »، «والهمزة: للتقريع والتوبيخ أي: أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة بالصدق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل، وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي عليه، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟» [(٢)].

وهكذا يظل الطابع العام في الآيتين هو خطاب العقل، والتهكم بهم لضعف عقولهم، وهو نفس الطريق الذي تسير فيه السورة كلها من خطاب العقل كما سبق،

---

(١)انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٥٣، ٢٥٤ لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي «المتوفى: ٧٧٤هـ» تحقيق: سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

(٢)انظر: فتح القدير: ٢/ ٤٩٠ لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني «المتوفى: ١٢٥٠هـ» الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

لتفصح الآيات عن انطباع نفسي خبيث عند هؤلاء الجاحدين، وهو يتمثل في انطواء نفوسهم على خبث دفين، وحقد متجذر في سويداء قلوبهم على الله ورسوله وقرآنه، عندما يستمعون إلى آيات القرآن تتلى عليهم، فيظهر رد فعلهم في الإنكار والجحود والمراوغة والاستهزاء، مع تيقنهم بجمال القرآن وجلاله، وحسن نظمه وتأليفه، لكنهم لا يجدون في النهاية ما يدفعون به هذا الجلال والجمال إلا التنطع والاستهزاء، وهو رد فعل ضعفاء الحجة في مواجهة من قويت حجته حتى صارت كالشمس في وضح النهار.

﴿المقام الثاني﴾

سخرية الكافرين من المؤمنين واحتقارهم وادعاؤهم الأفضلية عليهم

في هذا المقام يقارن الكافرون حالهم بما هم فيه من نعيم ومال ووجاهة وأندية فخمة، بحال المؤمنين أتباع محمد وما هم عليه من فقر وضعف ورثاثة في الهيئة وقشافة في العيش، متسائلين: أينا خير وأفضل عند الله نحن أم أنتم ؟ معتقدين أن معيار القبول والأفضلية عند الله إنما يكون بظاهر الحال في الدنيا من النعيم والسعة، أو البؤس والشقاء، فيرد عليهم القرآن بأن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أحسن منهم حالًا وأعز جاهًا، وأجمل منظرًا !.

- يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم: ٧٣]. وقد جاء الرد في الآية التالية وهي قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

[مريم: ٧٤]

ـالمقصد الأعظم لسورة مريم:

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ونفي الولد والشريك ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد.. هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كالشأن في السور المكية غالبًا.

والقصص هو مادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى. فقصة مريم ومولد

عيسى. فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهرون، وإسماعيل، وإدريس. وآدم ونوح. عليهم السلام[1].

وسورة مريم عليها السلام سورة مكية وتسمى - أيضًا - كهيعص، وهي ثمان وتسعون آية، وقد اشتملت على كثير من الخوارق والغرائب التي تدل على قدرة الله ﷻ، بما فيها من قصص عجيبة كإنجاب زكريا عليه السلام في سن الكبر، وكولادة عيسى عليه السلام بلا أب، وغيرها كثير.

«ومقصودها: بيان اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم على جميع خلقه، المستلزم لتمام العلم، الموجب للقدرة على البعث، والتنزه عن الولد، لأنه لا يكون إلا لمحتاج» [2].

وقد بدأت السورة المباركة بالأحرف المقطعة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١] وقد تضمنت تلك الأحرف الخمسة بصفاتها المختلفة من الهمس والشدة والاستفال والاستعلاء والإطباق إشارة لطيفة إلى حال النبي ﷺ ومن معه من المسلمين مع المشركين منذ بداية الدعوة ؛ حيث انتقلوا من ضعف إلى شدة إلى محنة ثم إلى قوة واستعلاء.

- قال في مصاعد النظر:

«فالافتتاح بهذه الأحرف في هذه السورة، إشارة - والله أعلم - إلى أن أهل الله عامة، يكون أمرهم عند المخالفين - أولاً - كما تشير إليه الكاف: «بما فيها من همس» ضعيفًا، مع شدة وانفتاح، كما كان حال النبي ﷺ أول ما دعا إلى الله تعالى، فإنه اشتهر

(١)انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٩٩
(٢)انظر: مصاعد النظر: ٢/ ٢٥٦

أمره، ولكنه كان ضعيفًا بإنكار قومه عليه، إلا أنهم لم يبالغوا في الإنكار، ثم يصير الأمر في أوائل العراك - كما تشير إليه الهاء، ثم يزداد بتمالؤ المستكبرين عليهم ضعفًا وخفاءً، وإلى هذا تشير قراءتها بالإمالة، ولا بد مع ذلك من نوع ظهور، كما يشير إليه انفتاح الهاء، وعليه نبهت قراءة الفتح...

ثم إذا علا أمرهم عن الوسط صاعدًا قوي، كما تشير إليه العين.فصار بين الشدة والرخاوة، وفيه انفتاح بشهرة، مع استفال في بعض الأمر، كما كان حالهم عند مبايعة الأنصار رضوان الله عليهم.

وأما آخر أمرهم: فهو - وإن كان فيه نوع من الضعف، وضرب من الرخاوة واللين، كما كان في غزوة حنين والطائف - فإنه يعقبه قوة عظيمة بالإطباق، واستعلاء واشتهار يملأ الآفاق، كما يشير إليه الصفير ،هذا في أهل الله عامة، المذكورين في هذه السورة، وغيرهم» [1].

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها، ويتمشى في موضوعاتها..وسياقها معرض للانفعالات والمشاعر القوية والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال. كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته.. كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيًا خاصًا[2].

وهكذا ترى وأنت تقرأ سورة مريم تعاضد القصص القرآني مع الإيقاع الموسيقي

---

(١)انظر: مصاعد النظر:٢/٢٥٨ - ٢٦٠

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٠٠

لبيان قضيتين:

الأولى: قضية التوحيد والشرك.

الثانية: قضية المعركة القائمة والصراع الدائم بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

ـ علاقة الآية بمقصد السورة:

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدث عن استهزاء المشركين وسخريتهم من المؤمنين حين تتلى عليهم آيات الرحمن، وتفاخرهم عليهم بأنهم أحسن حالًا منهم وأكثر مالًا، فلا شك أن هذا هو امتداد طبيعي لمسار المعركة الدائرة بين أهل الإيمان وأهل الكفر،منذ العصور الأولى للدعوة إلى الله مع كل الأنبياء، فما أنتم يا أهل مكة إلا امتداد لأسلافكم من المجرمين والكفرة، وهل تلد الحية إلا الحية، وما أنتم أيها المؤمنون في سخرية هؤلاء الكافرين منكم إلا في موضع امتحان وابتلاء لرفع درجاتكم، وقد مر أسلافكم من الموحدين بما مررتم به وأكثر، فصبروا وجاهدوا، ولم يجعلهم هذا الصراع يتزحزحون عن طريق الحق والإيمان قيد أنملة، فاثبتوا على دين الله ومناصرة رسوله، فأنتم على الصراط المستقيم.

ـ علاقة الآية بما قبلها :

استعرضت الآيات السابقة إنكار الكافرين لقضية البعث وتعجبت كيف ينكرونها

وقد خلق الإنسان من قبل ولم يك شيئًا،ثم توعدتهم بالخزي والعذاب الأليم في جهنم، وبينت قضاء الله الذي أخذه على نفسه من حتمية ورود جميع الخلائق جهنم لتلتهم المكذبين وتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا:

- يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[مريم: ٦٦ – ٧٢].

وإذا كان الكافرون يستهزئون بالمؤمنين عند تلاوتهم كتاب الله ويسخرون منهم ويتفاخرون بأنهم أحسن حالًا وأجمل مظهرًا، فإن الآيات السابقة ألمحت إلى أن المؤمنين غدا هم الفائزون المفلحون ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾[مريم: ٧٢] بينما هؤلاء المتكبرون يلقون في جهنم جاثين على ركبهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم: ٧٢] وكأن الآيات الكريمات تمهد للآية موضع الشاهد ببيان الحال التي يصير إليها هؤلاء المتكبرون وهي الخزي والذل والنكال.

- التحليل البلاغي:

بدأت الآية الكريمة بما بدأت به أخواتها (﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾[مريم: ٧٣]

لتعرض لنا مشهدًا نفسيًا آخر من مشاهد الصلف والغرور الذي دأب عليه الكافرون عند سماعهم القرآن، غير أن المشهد هنا مختلف عن سابقه فهم هناك طلبوا تبديل القرآن وتغييره، بينما هنا يتفاخرون على المؤمنين الضعفاء ويعيرونهم برثاثة هيأتهم وضعف حالهم وشدة فقرهم، بينما هم تظهر عليهم النعمة ويرفلون في نعيم الحياة، ولذلك تساءلوا متعجبين: أينا أحب إلى الله وأقرب؟ المنعمون أم الأشقياء؟ الأغنياء أم الفقراء؟ الأقوياء أم الضعفاء؟.

وقد وصلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾[مريم: ٦٦] عطفا عليها بالواو للتوسط بين الكمالين فكلاهما خبرية لفظًا ومعنى، والجامع بينهما اشتراكهما في بيان صلف الكافرين وغرورهم وجحودهم لما جاء به رسول الله ﷺ.

- قال في التحرير والتنوير :

«والآية عطف على قوله: «وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا »وهذا صنف آخر من غرور المشركين بالدنيا وإناطتهم الدلالة على السعادة بأحوال طيب العيش في الدنيا فكان المشركون يتفاخرون على المؤمنين ويرون أنفسهم أسعد منهم» (١).

وبناء الفعل «نُتْلَىٰ» للمفعول دليل على أن قضية الإنكار لا تتعلق بالتالي وإنما تتعلق بمضمون التلاوة، وقد سبق الحديث عن صدر الآية، وما يثير النفس ويجعلها تتساءل عن هذا الجحود من الكافرين أن الآيات بينات ؛ أي واضحات الدلالة لا غموض فيها «مرتلات الألفاظ، ملخصات المعاني، مبينات المقاصد: إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات. أو بتبيين الرسول قولًا أو فعلًا. أو ظاهرات الإعجاز تحدَّى بها

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٥٣/١٦

فلم يقدر على معارضتها. أو حججًا وبراهين» [1].

ومع ذلك هم يكابرون ويعلنون احتقارهم للمؤمنين، وهذا يدل على جهلهم وغباوتهم، كما يدل على طويتهم الخبيثة وما يضمرونه من مكر وكيد للإسلام وأهله.

وكالعادة في نسق هذه الآيات يجيء جواب الشرط ردًا من قبل الكافرين كرد فعل طبعي حين تستفزهم الآيات: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[مريم: ٧٣] وهنا يأتي المسند إليه معرفًا بالموصولية ؛ ليبرز أبشع صفاتهم وهي الكفر، إذ ليس بعد الكفر ذنب، والكفر هنا كفر بالله وبرسوله وبالقرآن وبالنعم التي يتقلبون فيها ويتباهون على المؤمنين، و «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»: يعني بهم مشركي قريش: النضر بن الحارث وأصحابه.

«لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ» يعني: فقراء أصحاب محمد ﷺوكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم، ويدهنون رؤوسهم، ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين:﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾[مريم: ٧٣] أي منزلًا ومسكنًا ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[مريم: ٧٣] أي مجلسًا، والمعنى: قال المشركون للمؤمنين؛ احتقارًا لهم: أينا أطيب عيشًا وأحسن مجلسًا نحن أو أنتم؟» [2].

حسب الكفار أن مقياس الخيرية والأفضلية هو مظهر المرء في الدنيا وحاله من الفقر والغنى والقوة والضعف .

---

(١) انظر :الكشاف: ٣/ ٣٦

(٢)انظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن: ٤ /٢٦٩ لمجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي «المتوفى: ٩٢٧ هـ» اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب الناشر: دار النوادر «إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلامِيّة – إدَارَةُ الشُؤُونِ الإسلاَمِيّةِ» الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.

المشهد هنا مختلف عن سابقه فهناك كانوا يخاطبون رسول الله ﷺ، وهنا يخاطبون المؤمنين، هناك تعجيز وتلكؤ، وهنا احتقار وتنقص، ولذلك اختلف وصفهم في المشهدين ؛ فقد وصفهم هناك بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[يونس: ١٥] لأن الطلب هناك تغيير القرآن وما أبشعه وما أقبحه من طلب، فهو يدل على فساد العقيدة وخرابها ويشير إلى انعدام الإيمان وعدم الأمل والطماعية في لقاء الله، بينما هنا يصفهم بالكفر ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[مريم: ٧٣] لأنهم في مقام احتقار المؤمنين والتنقص من شأنهم وازدرائهم متفاخرين عليهم بما أنعم الله به عليهم من ثراء وترف ووجاهة، وهي نعم جديرة بأن تقابل بالشكر لا بالجحود والكفران .

ومع اختلاف المقام واختلاف النظم تبعًا لاختلاف المقام فإننا نلمح في الآيتين نبرة الكبر والغرور واضحة جلية، ومحاولة تكسير العظام واستفزاز المشاعر، وإثارة البلبلة وإحباط النفوس من قبل المشركين في خطابهم هناك مع رسول الله ﷺ أو في خطابهم هنا مع المؤمنين، لكنها محاولات تبوء بالفشل والخسران.

وهنا يأتي مقول الكافرين وسؤالهم الخبيث للمؤمنين: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴾[مريم: ٧٣].

- قال الخطيب القزويني:

«وأما أي فللسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما يقول القائل: عندي ثياب فتقول أي الثياب هي؟ فتطلب منه وصفًا يميزها عندك عما يشاركها في الثوبية وفي التنزيل: «أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا» أي نحن أم أصحاب محمد ﷺ وفيه ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا

﴿[النمل: ٣٨] أي الإنسي أم الجني» [(١)].

فقد اعتقد الكافرون أن الخيرية والحسن ربما تكون جدلًا مشتركة بينهم وبين المؤمنين، وإذا كان الأمر كذلك فالذي يحققها ويحددها من وجهة نظرهم إنما هو ظاهر الحال من الغنى أو الفقر.

والطباق بين الذين كفروا والذين آمنوا يفيد الفرق بين الفريقين وهو ما يرشح منزلة كل منهما، ويبرز جحود الكافرين ونكرانهم، وإيمان المؤمنين وتصديقهم، ومن ثم كان الفريق الأول أهلًا للذم والعذاب والانتقام، بينما الفريق الثاني أهّله إيمانه إلى الفوز والفلاح والنجاة.

- قال في مفاتيح الغيب:

«اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا: لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة، ولما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل دل على أن الحق ليس مع المؤمنين، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب ونظيره قوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾[الأحقاف: ١١]» [(٢)].

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٦٩

(٢)انظر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ٢١ / ٥٦٠ لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري «المتوفى: ٦٠٦هـ» – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ

وهذه الشبهة الباطلة سيجيب عنها القرآن بعد قليل، والاستفهام هنا للتقرير، فهم يريدون منهم أن يقرروهم بمن حاز قصب السبق والأفضلية نحن أم أنتم بدليل الواقع كما يعتقدون.

وقد عبروا عنهم بلفظ الفريقين، للإشارة إلى بعد الشقة بينهما وتفاوت المراتب والمنازل، فكأن هؤلاء من واد وهؤلاء من واد آخر تمامًا.

وقد جاء المسند وهو خبر المبتدأ «خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» مكونًا من صفتين الخيرية والحسن وكلاهما أفعل تفضيل، وهو يعني: «أن شيئين اشتركا في معنى، وزاد أحدهما على الآخر فيه» (١).

فالكافرون هنا يعتقدون أنهم لو سلموا جدلا للمؤمنين بأن فيهم خيرية أوحسنًا،فأيهما خير وأيهما أحسن؟

وقد جاء تمييز أفعل التفضيل مبرزًا جهة التفاضل التي يتحدثون عنها «خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

والمراد بالمقام: موضع القيام أو المكان «وقرأ من عدا ابن كثير مقامًا- بفتح الميم- على أنه اسم مكان من قام، أطلق مجازًا على الحظ والرفعة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن: ٤٦]، فهو مأخوذ من القيام المستعمل مجازًا في الظهور والمقدرة ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقرأه ابن كثير- بضم الميم- من أقام بالمكان، وهو مستعمل في الكون في

(١)انظر: النحو الوافي: ٣/٣٩٥ عباس حسن – الناشر آوند دانش – الطبعة الأولى – ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

الدنيا،والمعنى: خير حياة» [1].

فقد شبهت الرفعة وعلو المنزلة وارتفاع القدر وهي معنوية بالمقام الحسن وهو حسي ثم استعير المقام لعلو المنزلة استعارة تصريحية تبعية لكونها في المشتق وهو اسم المكان، والجامع هو الراحة والشرف والعز في كل منهما .

والاستعارة هنا تبرز إحساسهم بالغرور والنفاجة والظهور والمقدرة والرياسة والتقدم على من سواهم.

وعلى قراءة الضم «مُقاما»، من أقام بالمكان، بمعنى الإقامة في الدنيا، أي أينا خير حياة وبقاء وإقامة في هذه الدنيا نحن أم أنتم؟.

وكلتاهما تشير إلى غرورهم وتعاليهم على المؤمنين.

والنديّ: المجلس ومجتمع القوم، حيث ينتدون، فقد كانوا يتباهون بناديهم وقد ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى:﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾[العلق: ١٧ – ١٨] والنادي بلا شك هو مكان اجتماع الكبار والزعماء وعلية القوم، فلا مكان فيه للرعاع والسوقة وعامة الناس، فهم لم يكتفوا بالمفاخرة والمنافرة بخيرية المقام ،وإنما أتبعوها بأحسنية النديّ وأسبقيته.

فقد كان الكبراء يجتمعون في نواديهم الفخمة، بينما المؤمنون يعيشون في منتدياتهم الفقيرة، لكنها غنية بالإيمان، فها هم سادة قريش حين يتلى عليهم القرآن يعيرون المؤمنين بفقرهم مقارنين بين حال الأغنياء من أمثال النضر بن الحارث وعمرو بن هشام والوليد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٥٤/١٦.

بن المغيرة وإخوانهم من السادة، وحال الفقراء من المؤمنين من أمثال بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين؟.

«أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيرًا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم في مجتمع قريش ولا خطر؟ وهم يجتمعون في بيت فقير عاطل كبيت خباب؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادي الفخمة الضخمة والمكانة الاجتماعية البارزة؟ وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء، عاطلة من عوامل الإغراء. ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات وينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع، ومن يشتهي الزينة والزخرف، ومن يطلب المال والمتاع» (١).

لم ينته الأمر عند هذا الحد بلا بد من الرد على شبهة هؤلاء الضالين ودحض مزاعمهم وافتراءاتهم، وهو ما تكفلت به الآية التالية لهذه الآية وفيها يقول تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾[مريم: ٧٤].

فليس إنعام الله عليكم دليل حبه لكم، وليس إفقاره للمؤمنين دليل بغضه إياهم، فمن كان أعظم نعمة منكم في الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم، فلو كان حصول النعم في الدنيا للإنسان دليلًا على حب الله للعبد لوجب في حبيب الله أن لا يبتليه بغم في الدنيا، ووجب عليه أن لا يهلك أحدا من أحبابه المنعمين في الدنيا «وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهي أن من وجد الدنيا كان حبيبًا لله تعالى، أو على فساد المقدمة الثانية وهي أن حبيب الله لا يوصل الله إليه غمًا، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢٣١٨/٤

ذكرتموه من الشبهة» [1].

وكم: هنا خبرية يراد منها التكثير، أي كثيرًا من القرون التي كانت أفضل منكم يا أهل مكة فيما تفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بألوان العذاب ولو كان إنعامنا عليهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد لأهل مكة مالا يخفى كأنه قيل: فسيحل بكم من العذاب ما حل بأسلافكم و«أَثَٰثًا»: تمييز النسبة وهو متاع البيت، وقيل هو ما جد منه، والرئي :المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرئ ريا على قلب الهمزة ياء وإدغامها أو على أنه من الري وهو النعمة والترفه» [2].

وهكذا ينتهي السياق إلى الرد على الكافرين بل ويلقن رسول الله ﷺ الرد عليهم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾[مريم: ٧٥].

وفي هذا الرد تهديد لهم ووعيد فهو يقول له: قل لهم عيشوا في غيكم، وابقوا في ضلالكم، ولننظر يوم القيامة من الخاسر الخائب الحقيقي نحن أم أنتم؟ ومن المنهزم الضعيف الذي لا ناصر له ولا جند يدافع عنه، وفي هذا تبكيت لهم وإذلال وتذكير بالمصير المحتوم الذي ينتظرهم وينغص عليهم حياتهم ونعيمهم، ويفقدهم لذة العيش والرفاهية التي تعالوا بها على المؤمنين.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢١/٥٦٠

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٥/٢٧٧

﴿المقام الثالث﴾

تجهم الكافرين وظهور المنكر على وجوههم عند سماع القرآن

في هذا المقام يبدو على وجوه المشركين ما يخفونه في قلوبهم وبواطنهم من شر وحقد وكراهية للمؤمنين، حتى إن الناظر لهم ليرى أثر المنكر واضحًا على وجوههم عندما يتلى عليهم كتاب الله، فكان المناسب للرد عليهم توعدهم بمنكر أشد مما بدا على وجوههم، يلقونه يوم القيامة وهو النارتلك التي وعدها الله الذين كفروا، وها هي في شوق لهذا اللقاء!.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج: ٧٢].

ـ المقصد الأعظم لسورة الحج:

تبدأ سورة الحج بنداء الناس ودعوتهم إلى تقوى الله محذرة ومنذرة من زلزلة الساعة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج: ١] ثم تبين بعضًا من أهوالها وشدائدها، وتنتفض السورة في سياق ملتهب ناعية على الكافرين كفرهم وجدالهم العقيم، متناولة قضية الخلق والبعث والساعة، ثم تعود إلى مهاجمة الجدل العقيم

والضلال والكفر مبينة انصياع المخلوقات كلها وسجودها وخضوعها لله، ثم تعود إلى قضية الشرك والمشركين فتلح في بيان ما أعده الله لهم من عذاب أليم .

وهكذا ترى الطابع العام للسورة هو الشدة والعنف والاهتمام بقضية محاربة الشرك والمشركين .

والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة. والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام [1].

«ومقصودها: الحث على التقوى، المعلية عن دركة الاستحقاق الحكيم بالعدل، إلى درجة استئهال الإنعام بالفضل، في يوم الجمع» [2].

ـعلاقة الآية بمقصد السورة :

الآية هنا تمثل امتدادًا طبيعيًا لمقصود السورة كلها، فهي تعرض حالة نفسية عكرة ومشهدًا خانقًا من مشاهد الكره والحقد الذي طفا على وجوه الكافرين حين تتلى عليهم آيات الرحمن ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾[الحج: ٧٢] ثم هو لا يقتصر على هذا وإنما يكادون من غيظهم أن يعتدوا على المؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن، ثم تنتهي ببيان ما ينتظرهم من تلهف النار عليهم وانتظارها لهم .

وما هذا المشهد في حقيقة أمره إلا حلقة من سلسلة المهاترات والجدل العقيم للكافرين، والعذاب الأليم والعقاب للمشركين الذي بدا واضحًا في سياق السورة كلها.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤٠٦.
(٢) انظر :مصاعد النظر: ٢/٢٩٤.

ـعلاقة الآية بما قبلها:

الآيات السابقة على هذه الآية تبين أن لكل أمة منهجًا في الحياة لا يحيدون عنه، ثم تثبت النبيﷺ بأنه على طريق الحق ومنهج الرشد وتدعوه إلى الإعراض عنهم وعن جدالهم العقيم، فالأمر غدا بين يدي الله، ثم تبرز ضلالهم وجهلهم بعبادة الأوثان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾[الحج: ٦٧ – ٧١].

وأعجب شيء أنهم وهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا، وما ليس لهم به علم. لا يستمعون لدعوة الحق، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول. إنما تأخذهم العزة بالإثم، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله [(١)].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾[الحج: ٧٢].

وهكذا تأتي الآية موضوع الدراسة لتبين مشهدًا من مشاهد الضلال لديهم والحقد

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤ / ٢٤٤٣.

على الإسلام وأهله، وكأنها تهمس في آذاننا: تلك طريقة الكافرين وهذا منهجهم فأعرضوا عنهم، فغدا موعدهم النار.

ـ التحليل البلاغي:

بدأت الآية كسائر أخواتها بقوله تعالى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» وكأنها تصور مشهدًا ثالثًا من مشاهد الضجر والعصبية من قبل المشركين حين يتلى عليهم القرآن الكريم من المؤمنين، غير أن رد فعل الكافرين هنا مختلف عما سبقه، فهم هناك تارة يطلبون من النبي ﷺ تغيير القرآن ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، وأخرى يحتقرون المسلمين قائلين لهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[مريم: ٧٣] بينما هنا يبدو أثر الانفعال النفسي والحركي على وجوههم عند سماع القرآن: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا»، وكأنهم وجدوا أن طلب التبديل والتغيير للقرآن أو احتقار المؤمنين والتعالي عليهم لا يجدي ولا ينفع، فهم هنا تجاوزوا مرحلة المراوغة والاستهزاء والتعالي إلى مرحلة الفعل والهم بالبطش بالمسلمين وقتالهم والوثوب عليهم فضلًا عما يظهر على وجوههم من علامات الإنكار والكراهية لما يستمعون إليه من آيات القرآن.

وقد جاء صدر الآية «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» معطوفًا على صدر الآية التي قبلها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[الحج: ٧١].

- قال في التحرير والتنوير:

«والآية عطف على جملة «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا »[الحج: ٧١] لبيان جرم آخر من أجرامهم مع جرم عبادة الأصنام، وهو جرم تكذيب الرسول والتكذيب بالقرآن» (١).

فالوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين، لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، والجامع بينهما اتفاقهما في المنكر والجهل والغباء والكبر الأجوف.

ولذلك جاء جواب الشرط مبرزًا حالة الغضب ومبينًا درجة الحقد والغل التي طفت على وجوههم عند سماع القرآن: «تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ».

«والمُنْكَرَ: الفظيع من التجهم والبسور ،أو الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام» (٢).

فالمنكر المراد هنا كلوح في الوجه وتجهم وعبوس، وهو شيء حسي يشاهد بالعين، لكنه عبر عنه بالمعرفة «تَعْرِفُ» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه الرؤية بالمعرفة، بجامع الإدراك في كل منهما، ثم اشتق من الرؤية بمعنى المعرفة تعرف بمعنى ترى .

وبلاغة الاستعارة هنا تبدو في أن المعرفة يتحصل بها الإدراك بالقلب، فما يشاهد على وجوههم من تجهم وتقطيب وعبوس يحس به القلب قبل أن تراه العين، وهو ملمح نفسي خطير يدل على فظاعة بسور الكافرين وكلوح وجوههم وإنكارهم القرآن ومن يتلوه عليهم في آن واحد.

وقد اختار الوجوه ؛ لأنها هي التي يبدو عليها أثر الانفعالات النفسية من القبول

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٧/٣٣٤.
(٢) انظر: الكشاف: ٣ /١٧٠.

أو الإنكار، وظهور المنكر في وجوههم كناية عن امتلاء قلوبهم بالغل والحنق والغيظ للمسلمين حتى تجاوز الحقد القلوب إلى الوجوه.

- قال في التحرير والتنوير:

«المعنى أنهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عند ما يتلى عليهم القرآن ويدعون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثره بواطنهم فظهر على وجوههم. كما في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[المطففين: ٢٤] كناية عن وفرة نعيمهم وفرط مسرتهم به، ولأجل هذه الكناية عدل عن التصريح بنحو: اشتد غيظهم، أو يكادون يتميزون غيظًا، ونحو قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] (١).

وقد أظهر في موضع الإضمار، إذ الأصل: تعرف في وجوههم، لكنه عدل عن الضمير إلى الاسم الموصول «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» ليبرز سبب حقدهم وتجهمهم وظهور المنكر على وجوههم وهو الكفر، وليدل على عنادهم وجحودهم .

ولم يقتصر الأمر على التغير الشكلي والوجوم في وجوههم، ولكنه تعداه إلى الرغبة في السطو والشهية في الانتقام «يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا»، وقد جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها «تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ» لكمال الاتصال، حيث وقعت منها بمنزلة «بدل الاشتمال ؛لأن الهم بالسطو مما يشتمل عليه المنكر» (٢).

---

(١) انظر :التحرير والتنوير: ١٧/٣٣٤.
(٢) انظر :التحرير والتنوير: ١٧/٣٣٥.

فالفصل هنا يبين عدم وجود فاصل زمني بين ما ظهر على وجوههم من وجوم وكراهية، وبين همهم بالسطو على المؤمنين، مما يدل على تفاقم العداوة والبغضاء.

واستعمال فعل المقاربة «يَكَادُونَ» يشير إلى همهم بالفتك بهم والسطو، حيث إن «كاد» تدل «على مقاربة وقوع الفعل الذي هو خبرها...وتوجب أن يكون الفعل شديد القرب من الحال ..ومن ثم دلت على اقترابهم من اقتراف هذا الجرم العظيم الكاشف عن عظيم حمقهم،فليس أحمق ممن يهم بالبطش ممن ينير له الطريق ويقشع من بصيرته الظلمات» [1].

والسطو البطش والوثوب والانتقام قال في أساس البلاغة: «وله سطوة منكرة، وهو ذو سطوات ونقمات، وسطا بقرنه وعلى قرنه: وثب عليه وبطش به. والفحل يسطو على طروقته. وفرس ساط: رافع ذنبه في حضره» [2].

«وللسين مع الطاء فاء وعينا للكلمة صفة الامتداد، تقول رأيتهم قاعدين على المساطب وهي الدكاكين الممتدة حول رحبة المسجد» [3].

فالفعل «يَسْطُونَ» بمادته يشعر بالشدة والحدة والفتك والانتقام، وبأصوات حروفه يدل على توسيع دائرة الفتك وامتداد الرغبة في إهلاك كل المؤمنين التالين عليهم

---

(١) انظر: كاد في الذكر الحكيم الموقع والدلالة د عبد الباري طه سعيد: ٩، ٥٠مطبعة الإخوة الأشقاء ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٢)انظر: أساس البلاغة: ٤٣٩/١ «س ط و» للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر مايو ٢٠٠٣م.

(٣)انظر: إعراب القرآن وبيانه: ٤٧٨/٦ لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش «المتوفى: ١٤٠٣هـ» – دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

للقرآن بل كل أتباع محمد ﷺ، وتشعر معه بالوحشية وانعدام الرحمة والإنسانية والرغبة في التشفي والشهية إلى الانتقام.

ومضارعيته توحي باستحضار تلك الصورة البشعة لهؤلاء الظالمين وهم يهبون للتعدي على المؤمنين،والباء للإلصاق والاختلاط وهي تشير إلى تحرش الكافرين بهم ولا نعدم فيها رائحة الاستعلاء فهم يسطون بهم ويسطون عليهم،والأول على تضمين الفعل سطًا معنى البطش وعلى كل فهي تشير إلى الظلم والتعدي .

وتلمح في السياق أنه عبر عن الفئة المستضعفة المستهدفة بالسطو بالاسم الموصول وصلته: «بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا» ولم يقل مثلًا: بالمؤمنين، ليبرز سبب الغيظ والكراهية وهي سماع القرآن، فما استفزهم غير سماع وعيدهم بالعذاب الأليم وسب آلهتهم في كتاب الله، وتلحظ في «على» سواء هنا أو في أول الآية «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» تلحظ فيها معنى المشقة المستفادة من الاستعلاء الذي هو أصل معانيها، فالقرآن ينزل على آذانهم وعقولهم وقلوبهم كالصواعق المرسلة، لأنه يواجههم بالحق، كما تلحظ فيها تعمد المؤمنين قراءة القرآن على الكافرين على الرغم من توقعهم الأذى منهم، حرصًا من الرسول ﷺ وأصحابه الكرام على تبليغ رسالة الله مهما كلفهم ذلك .

ولا شك أن مما يؤكد هذا المعنى هو مضارعية فعل التلاوة في الموضعين «تُتْلَىٰ، يَتْلُونَ» وهي تشير إلى تجدد التلاوة وتكرارها مرة بعد مرة لا يبالون بالعذاب في سبيل الله، وإضافة الآيات في الموضعين كذلك إلى نا العظمة «ءَايَٰتُنَا» يشير إلى تعظيم هذه الآيات وحسبها شرفًا أنها آيات الرحمن.

إن المشركين نفدت حجتهم وضعف موقفهم وافتقدوا أقل وسائل الإقناع

لأنفسهم على أنهم على صواب، فلم يعد أمامهم إلا طريق البطش والجبروت بهؤلاء الضعفاء.

- يقول صاحب الظلال:

«إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة، ولا يقرعون الدليل بالدليل إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عند ما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل، وذلك شأن الطغاة دائمًا يشتجر في نفوسهم العتو، وتهيج فيهم روح البطش، ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ!» (١).

ولذلك واجههم القرآن بالوعيد بما هو أشد من ذلك البطش والمنكر ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾[الحج: ٧٢].

فعنفهم لا يقابل إلا بالعنف، وغيظهم وحنقهم لا يقابل إلا بالتهديد والوعيد، ولذلك لقن الله ﷻ رسوله ﷺ الرد عليهم على سبيل الاستئناف: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾[الحج: ٧٢] واسم الإشارة عائد إلى السطو والعنف أو الغضب الذي ألم بهم عند سماع القرآن، والاستفهام للتهكم بهم وتهديدهم ووعيدهم بما ينتظرهم من عاقبة وخيمة ومصير سيئ، والفاء للتفريع أي لتفريع العذاب على مافعلوه، فهو«استئناف ابتدائي يفيد زيادة إغاظتهم،والتفريع بالفاء ناشئ من ظهور أثر المنكر على وجوههم فجعل دلالة ملامحهم بمنزلة دلالة الألفاظ، ففرع عليها ما هو جواب عن كلام فيزيدهم غيظًا، ويجوز كون التفريع على التلاوة المأخوذة من قوله:«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا»، أي اتل عليهم

(١)انظر: في ظلال القرآن: ٤ / ٢٤٤٣.

الآيات المنذرة والمبينة لكفرهم، وفرع عليها وعيدهم بالنار، والاستفهام مستعمل في الاستئذان، وهو استئذان تهكمي لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم» [1].

وشر: اسم تفضيل، أصله أشر: حذفت الهمزة تخفيفًا، كما حذفت في خير بمعنى أخير، والإشارة بـ «ذَٰلِكُمُ» إلى ما أثار منكرهم وحفيظتهم،بسبب سماع القرآن فهو يهددهم بطريق التهكم بهم والتوعد لهم.

واختيار فعل الإنباء لإثارة دهشتهم وشد انتباههم، وقد أجاب على هذا السؤال الذي طرحه مباشرة فقال: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[الحج: ٧٢] وكأن هذا السؤال الصريح أثار انتباههم وحرك فضولهم لمعرفة ما هو شر من ذلك، فقيل: وما هو شر من ذلك؟ فقيل: النار... وقد بنى كلامه على حذف المسند إليه، أي هي النار أو هو النار، وذلك للمسارعة بذكر اسمها مباشرة إشارة إلى تطلعها إليهم وانتظارها لهم،وسرعة إحضارها بأبرز أسمائها أمام أعينهم لزيادة زجرهم وتخويفهم، وجاء المسند معرفا بأل ؛ للمبالغة في العذاب، وكأن النار بحرها ولهبها وكل خصائص الإحراق فيها ما خلقت إلا لهم .

(١)انظر :التحرير والتنوير: ٣٣٦/١٧.

- قال في الكشاف:

«قرئ النَّارُ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلا قال: ما هو؟ فقيل: النار، أى: هو النار. وبالنصب على الاختصاص، وبالجرّ على البدل من «بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ» من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم. أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم «وَعَدَهَا ٱللَّهُ» استئناف كلام. ويحتمل أن تكون النَّارُ مبتدأ ووَعَدَهَا خبرًا، وأن يكون حالًا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار «قد» [1].

فقراءة النصب على الاختصاص، أي بإضمار: أعني أو أخص، وفيها تهديد لهم ووعيد، وقراءة الجر على البدلية من «بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ» تشير إلى المصير الأسوأ الذي ينتظرهم، وهو مصير ينطوي على شر كبير بل هو الشر كله، فكلمة النار بذاتها تعد جملة مستقلة على قراءتي الرفع والنصب، وقد جاءت مفصولة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال صريح، وفصلت ما بعدها عنها وهي قوله تعالى: «وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»؛ لأن هذه الجملة الأخيرة جملة استئنافية يراد منها ابتداء كلام جديد، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال؛ حيث أثارت جملة «ٱلنَّارُ» في النفس سؤالًا تقديره: ما شأنها وما حالها؟ فقيل: «وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» ...ففصلت عنها كما يفصل الجواب عن السؤال.

ويجوز أن تكون النار مبتدأ - على الرفع - وجملة «وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» خبرًا عنه، وعلى كل ففي الجملة تهديد ووعيد عنيف لهؤلاء المتكبرين أنهم بسبب إعراضهم عن قبول الحق ومحاولتهم البطش بالمؤمنين ستكون النار لهم مصيرًا لا محالة .

---

(١) انظر: الكشاف: ٣ / ١٧٠.

وسوق الكلام هكذا بصيغة الوعد وهو في مقام الحديث عن الشر والعذاب تهكم بهم، ولم يقل وعد الله الكافرين النار وإنما قال: وعد الله النار الكافرين، إشارة إلى مسرة النار بهم وفرحها بقدومهم فقد أعطاها الله وعدًا بهم لا محالة والله لا يخلف الميعاد، وفي ذلك قطع لكبرهم وتنغيص لنعيمهم .

وقد جاء مفعول الوعد الثاني «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» هكذا بالاسم الموصول وصلته، والأصل أن يعبر بضميرهم فيقال: النار وعدها الله إياكم، ليبرز سبب استحقاقهم للنار وهو الكفر، وليدل على العموم فهي لهم ولغيرهم من الكافرين، ثم ذيلت الآية بقوله: «وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ» أي وبئس المصير مصيرهم وهي جملة يراد منها إنشاء الذم لهم ولغيرهم ممن كان مصيره النار، فما أقبحه وما أسوأه من مصير نعوذ بالله جميعًا منه.

- قال في التحرير والتنوير:

«والتعبير عنهم بقوله: الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار، أي وعدها الله إياكم لكفركم.وبئس المصير أي بئس مصيرهم هي، فحرف التعريف عوض عن المضاف إليه، فتكون الجملة إنشاء ذم معطوفة على جملة الحال على تقدير القول. ويجوز أن يكون التعريف للجنس فيفيد العموم، أي بئس المصير هي لمن صار إليها، فتكون الجملة تذييلًا لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم وتكون الواو اعتراضية تذييلية»[1].

(١) انظر :التحرير والتنوير: ٣٣٧/١٧.

وهكذا تنتهي الآية بنهاية هي الأليق بحال هؤلاء الكافرين، والأنسب بصلفهم وكبرهم وحقدهم وكرههم للإسلام والمسلمين، إن مقطع الآية يقطع أعناقهم ويبث في حناياهم اليأس والقنوط ويبشرهم بالعذاب الأبدي ويرد عليهم بغضهم ومنكرهم الذي بدا على وجوههم عند سماع القرآن، ويبرز تشوف النار وتطلعها إليهم، فما بينهم وبين أن يدخلوها سوى الموت، فغدًا سيلقون النار وبئس المصير.

﴿المقام الرابع﴾

إثارة نعرة الصد عن دين الآباء، واتهام القرآن بأنه إفك مفترى، وسحر مبين

في هذا المقام يعمد المشركون إلى تهييج العامة والسوقة عندما يتلى عليهم القرآن، بأن محمدًا يحول بينهم وبين دين آبائهم وأجدادهم وفي هذا ذم وتنقيص لهؤلاء الآباء، ومن ثم يتهمون القرآن بأنه كذب وإفك مفترى فليس من عند الله كما يزعم محمد، وما جاء به محمد كله لا يعدو أن يكون سحرًا بينًا واضحًا للجميع.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ: ٤٣].

ـ المقصد الأعظم لسورة سبأ:

بدأت سورة سبأ بحمد الله والثناء عليه ثم تعرضت لقضية إنكار المشركين للبعث والساعة وتكذيبهم رسول الله ﷺ وإنكارهم أن يكون القرآن من عند الله، وقد ساقت لهم دلائل قدرته سبحانه على تعجيل الانتقام منهم كما انتقم ممن كذبوا الأنبياء قبلهم،وفي سبيل ذلك تعرضت لقصة آل داود وسليمان وتسخير الله لهما كثيرا من المخلوقات، ثم قصة سبأ وما حل بهم من انتقام الله حين كفروا بنعمائه ،وبينت لهم أنهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا معبوداتهم من دون الله وغدًا يمثلون بين يدي الله .

وهي سورة مكية آياتها أربع وخمسون آية،«ومقصودها: أن الدار الآخرة التي أشار

إليها آخر الأحزاب بالعذاب والمغفرة، بعد أن أعلم أن الناس يسألون عنها، كائنة لا ريب في إتيانها، لما في ذلك من الحكمة وله عليه من القدرة» [1].

وقد وردت قصة سبأ في السورة الكريمة ولذلك سميت بها، ولا شك أن هناك مناسبة كبيرة بين مقصد السورة وبين تلك القصة، وهي تتمثل في التعريض لأهل مكة بانتقام الله منهم وتبديل حالهم من النعيم والرفاهية إلى البؤس والشقاء، كما فعل بأهل سبأ عقابًا لهم على كفرهم.

ـ علاقة الآية بمقصد السورة :

لا شك أن الآية الكريمة تدور في فلك السورة وتتوافق معها في مقصدها فهي امتداد طبعي لقصة المشركين في كفرهم وتكذيبهم رسول الله ﷺ والقرآن والإسلام كله، فقد عنيت السورة الكريمة بعرض أعاجيب المشركين في تكذيبهم بالبعث والجزاء، فكانت الآية الكريمة حلقة من سلسلة الجحود والكفران الذي عنيت به السورة.

ـ علاقة الآية بما قبلها:

الآيات السابقة على هذه الآية تعرضت لتبكيت المشركين يوم الحشر على عبادتهم الملائكة من دون الله، وتبرؤ الملائكة منهم وتأكيدهم على عبادة المشركين للجن من دون الله، ثم بينت انعدام النصير في هذا اليوم ووقوع العذاب بالمكذبين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ

(١)انظر: مصاعد النظر: ٢/ ٣٧٧.

لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[سبأ: ٤٠ – ٤٣].

ثم ذكر مظهرًا من مظاهر شركهم وتكذيبهم وافترائهم على رسول الله ﷺ فقال:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [سبأ: ٤٣].

- قال في نظم الدرر:

«ولما أخبر أنهم أبوا الإيمان بالقرآن، المخبر بالغيب من أمر الرحمن ...وختم بأنهم آمنوا بالجن غيبًا وعبدوهم من دون الله بما لم يدع إليه عقل ولا نقل، وصدقوهم من الإخبار بما إن صدقوا في شيء منه خلطوا معه أكثر من مائة كذبة، وسلب أعظم من ادعوا أنهم استندوا إليه في النفع والضر، وأسند تعذيبهم إلى تكذيبهم، أتبعه الإخبار بأنهم لازموا الإصرار على ذلك الكفر والتكذيب بما كله صدق وحكم فقال:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[سبأ: ٤٣][1].

فكأن هذه الآية تتعجب من ضلال المشركين كيف يؤمنون بالجن ويكفرون بالله ؟ كيف يعبدون المخلوق ويدعون الخالق ؟ بل كيف يسيرون وراء الخرافات والأوهام

---

(١)انظر: نظم الدرر: ١٥ / ٥٢٢، ٥٢٣.

والضلال ويتركون الحقائق الناصعة كالشمس في وضح النهار؟.

- التحليل البلاغي:

بدأت الآية الكريمة بما بدأت به أخواتها بقولـه تعـالى: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» وقد جاءت هذه الجملة الشرطية موصولة بالواو «عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾[سبأ: ٤٠] من عطف القصة على القصة» (١).

والوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين فهما خبريتان، وقد أفادت الأولى مـنهما تصوير مشهد أخروي وهو مشهد الخزي والنكال لهؤلاء الكافرين بين يدي الله، وأفادت الثانية تصوير مشهد دنيوي لما كان عليه الكافرون من تنطع وجحود.

والتالي قد يكون رسول الله ﷺ وقد يكون غيره من الصحابة الكرام كما يفيـده بنـاء الفعل لما لم يسم فاعله، فالمهم هنا أن سماع القرآن يخرجهم عن الجادة ويستفز مشاعرهم، لاسيما وأن آياته «بَيِّنَٰتٍ».

غير أن الجواب هنا لم يكن طلبًا لتبديل القرآن، ولم يكن احتقارًا للمؤمنين، ولم يكن تجهمًا ومنكرًا يعرف ويرى في وجوههم كما سبق في الآيات الثلاث السابقة على الترتيب ،لم يكن شيئًا من هذا القبيل وإنما كان موجهًا إلى شخص رسول الله ﷺ، ثم إلى اتهام القرآن بأنه إفك مفترى، تم الحكم على الرسالة كلها بأنها سحر مبين: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ

(١)انظر :التحرير والتنوير: ٢٢٥/٢٢.

مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾﴾[سبأ: ٤٣].

لقد اختلفت نبرة الجواب هنا وتعالت أصواتهم وارتفع صياحهم معلنين أنه لابد من وقفة حاسمة مع هذا الدين، فما مضى شيء وهذه المرحلة شيء آخر، لقد استفحل أمر محمد ولذلك لابد من تصويب النقد له أولًا وهم لا يجدون في شخصه الكريم مدخلًا للذم أو التنقص، فليس أمامهم إذًا سوى إحياء النعرة الجاهلية في نفوس الناس وإلهاب مشاعرهم بأن ما يدعو إليه محمد لا يعدو أن يكون خروجًا عما توارثناه من عقائد آبائنا وأجدادنا:

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾[سبأ: ٤٣]، وأول ما يطالعنا هنا من بلاغة النظم القرآني أنه طوى ذكرهم فلم يقل مثلًا قال الذين كفروا، وإنما عبر عنهم بالضمير «واو الجماعة» قالوا؛ وكأنهم لشناعة فعلهم ليسوا أهلًا للذكر أو الإظهار، وإنما هم أجدر أن تحذف أسماؤهم وأوصافهم من التاريخ كله، هم أحرى بأن يتحدث عنهم بطريق الغيبة هكذا: قالوا، ثم إنهم مجتمعون على هذا القول كما تفيده واو الجماعة .

ثم إنهم يعبرون عن قضيتهم بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، فهم أنفسهم ينكرون أن يكون محمد بينهم متهمًا، لكنهم أرادوا أن يقنعوا أنفسهم بما يمنعها من متابعته: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ فتذاكروا ما كان عليه الآباء والأجداد.

وقد تحدثوا عنه ﷺ باسم الإشارة «مَا هَٰذَآ » أي ما هذا الرجل إلا رجل ... إلماحًا منهم لعنهم الله إلى إهانته وتحقيره ﷺ ولعن الله الكافرين، وتنكير «رَجُلٞ » ليشيروا إلى أنه

رجل كسائر الرجال، لا فرق بينه وبينهم فليس نبيًا يوحى إليه كما يدعي، واستعمال فعل الإرادة «يُرِيدُ» يشير إلى إحساسهم بإرادته القوية الصلبة في سبيل دعوته، وإلحاحه في تبليغ رسالة ربه، ومضارعيته تشير إلى تجدد هذه الإرادة وحيويتها، وجاء مفعول الإرادة مصدرًا منسبكًا من أن والفعل المضارع «أَن يَصُدَّكُمْ» ليشير إلى حرصه على إبعادهم وإقصائهم عن عبادة الأوثان، ولفظ الصد يوحي بقوته ﷺ في حجته وإلحاحه على إخراجهم من الظلمات إلى النور، وما في «عن» من معنى المجاوزة يشير إلى رغبته في قطعهم عن هذا الماضي بكل رواسبه ومجاوزتهم تلك المرحلة البغيضة في حياتهم، وعموم «ما» يشير إلى استئصال كل عقائد الوثنية دون استثناء، فلا مجال هنا للمفاوضة، وماضوية «كَانَ» تثير فيهم نعرة الانتصار لدين الآباء الأزلي وقدسيته لديهم، ومضارعية «يَعْبُدُ» تدل على أنهم ورثوا تلك العقائد جيلًا بعد جيل وتتابعوا عليها، «وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد» [1].

لقد قابلوا الحق المتلو عليهم بخيالات الماضي وضلالاته تعصبًا وانتصارًا لتقاليد الآباء والأجداد، وهم يعرفون قيمة ما يواجههم به القرآن من الحق الواضح المستقيم في مقابلة ضلالهم وأوهامهم، فأحسوا بضعف موقفهم ولذلك أتبعوا هذا الاتهام باتهام آخر يمس أمانة المبلغ ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾[سبأ: ٤٣]«والإفك هو الكذب والافتراء ولكنهم يزيدونه توكيدًا: «مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى»..ذلك ليشككوا في قيمته

(١)انظر: تفسير أبي السعود: ٧ /١٣٨.

ابتداء، متى أوقعوا الشك في مصدره الإلهي» [1].

وقد جاءت الجملة: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ موصولة بسابقتها بالواو للتوسط بين الكمالين فهما خبريتان، والجامع بينهما اشتراكهما في الافتراء على رسول الله ﷺ وعلى القرآن.

وقد جاء الخبر هنا كسابقه بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء ؛ لأنهم في مواجهة من يجزم يقينًا بصدق قضيته التي يدعو إليها وهو النبي والمؤمنون، ويقطع بكذبهم وافترائهم، وهم يعلمون ذلك يقينًا لذلك فإن التأكيد بأسلوب النفي والاستثناء بقدر ما هو راجع لحال المخاطب إلا أنه يفضح ما تنطوي عليه نفوسهم من إحساس بضعف موقفهم ووهن حجتهم وزيف ادعاءاتهم، لذلك ساقوا الخبر بهذا الأسلوب القوي المزلزل ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ على طريقتهم في حديثهم السابق عن رسول الله ﷺ باسم الإشارة «هَٰذَآ » وغرضهم بذلك ذم القرآن الكريم واحتقاره والتقليل من شأنه، أقمأهم الله، وتقدست آيات ربنا عن كل نقص أو عيب، ثم إنهم لم يكتفوا بجعله إفكًا أي كذبًا وافتراءً، بل وصفوه بأنه «إِفْكٌ مُّفْتَرًى » فهو في عقيدتهم أنه ليس من عند الله كما يدعي محمد، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل: ١٠٣] فهم يشككون بذلك في القرآن بل في مصدر الشريعة كلها وأنها ليست من عند الله.

ثم مضوا يصفون القرآن ذاته:«وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .. «فهو كلام مؤثر يزلزل القلوب، فلا يكفي أن يقولوا: إنه مفترى. فحاولوا إذن

---

(١)انظر: في ظلال القرآن: ٥ /٢٩١٣.

أن يعللوا وقعه القاهر في القلوب. فقالوا: إنه سحر مبين! فهي سلسلة من الاتهامات، حلقة بعد حلقة، يواجهون بها الآيات البينات كي يحولوا بينها وبين القلوب» [1].

وقد جاءت الجملة معطوفة على «قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ ..» والوصل للتوسط بين الكمالين، والجامع هو إنكارهم للحق جملةً وتفصيلًا، وقد أظهر هنا في موضع الإضمار حيث لم يقل: وقالوا، إنما وصفهم بلفظ الكفر: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ..»؛ليبرز أبشع صفاتهم التي حملتهم على قول المنكر وإنكار الحق، وقد سماه الله ﷻ: «الحق»؛ لشموله لكل ما يتعلق بالإسلام فهو حق لا مرية فيه، وفي هذا تعجيب من حالهم واتهام لعقولهم بالأفون والجمود، وقد أفادت «لَمَّا» الحينية اختصاصهم بهذا الفضل في هذا التوقيت بعد زمان، لكنهم لم يقدروا تلك النعمة، وفي اختيار فعل المجيء «لَمَّا جَآءَهُمْ » إشارة إلى ثقل القرآن وعبء الدعوة ومشقة الأمانة التي لا يحملها سوى الأقوياء من الرجال.

- قال في الكشاف:

«الإشارة الأولى: إلى النبي ﷺ، والثانية إلى القرآن، والثالثة: إلى الحق، والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو، وفي قوله: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » وفي أن لم يقل: «وقالوا»، وفي قوله: «لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ » وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي «لَمَّا» من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله ومكابرتهم

(١)انظر: في ظلال القرآن: ٥ /٢٩١٣.

لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه «إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرًا» (١).

فقد أتى مقول القول: «إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » بأسلوب القصر كما في سابقيه بطريق النفي والاستثناء، فهم يعلمون يقينًا إنكار المؤمنين لادعاءاتهم، لذلك خاطبوهم بهذا الأسلوب القوي، وتلمح فيه كذلك إحساسًا منهم بخسارة القضية ولذلك حشدوا في المواطن الثلاثة أقوى أساليب التأكيد؛ لاستهواء العامة وخداع الجماهير العريضة من أتباعهم، ومحاولة التأثير عليهم وإقناعهم ببطلان ما جاء به محمد ﷺ، ولذلك وصفوا السحر بأنه: «مُّبِينٌ » أي بين واضح ظاهر لكل ذي عينين.

لكن القرآن الكريم يرد دعاواهم تلك الباطلة بالحجة والبرهان العقلي، فهم ليسوا كأهل الكتاب مثلًا حتى يقولوا عندنا كتب ندرسها وقد علمنا منها بطلان ما جئتم به مثلا، ولم نرسل إليهم قبلك رسلًا، والأمر الآخر هو أن من سبق من أمم الضلال كذبوا كتكذيبهم لكن الفرق بينهم وبينهم يتمثل في تمكين الله للأمم السابقة في القوة والجسم والمال والبطش والسلطان فما بلغ هؤلاء معشار ما آتيناهم ومع ذلك حل بهم عذابنا وانتقامنا، يقول تعالى :﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾[سبأ: ٤٤ – ٤٥].

فها هو القرآن يفضحهم بأنهم أميون، فلم يرسل الله لهم نذيرًا من قبل، ولم تصلهم

(١)انظر :الكشاف: ٣ / ٥٨٨، ٥٨٩.

كتب كأهل الكتاب، وهم مع ذلك إذا قيسوا بمن سبقهم كانوا أقل منهم مالًا وولدًا وبطشًا ومع ذلك حل بهم عذاب الله.

ولذلك بعد أن فضح جهلهم وبين غباءهم توعدهم على تكذيبهم بقوله: « وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ » أي الذين تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك «من طول الأعمار وقوّة الأجرام وكثرة الأموال، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغنِ عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون، فما بال هؤلاء؟.. «فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ »؛ أي للمكذبين الأوّلين، فليحذروا من مثله» [1].

وهكذا تنتهي الآيات مفندة ضلالهم ومبطلة أكاذيبهم ومعلنة صدق رسول الله ﷺ وصدق ما جاء به .

والمقام هنا مختلف عما سبق فهنا تتعالى صيحاتهم ويحتشدون للقضاء على محمد وأتباعه، بعد أن رأوا أمره يكبر وخطره يستفحل يوما بعد يوم وأتباعه في زيادة مستمرة، الأمر ينذر بالخطر ويهدد أمنهم وسيادتهم لذلك وجدنا النظم هنا مختلفًا عما سبق في قوته وشدة إيقاعه وتتابع مؤكداته وتكرار أقوالهم، وتقسيمها بين محمد وبين القرآن وبين الحق الذي جاءهم به جملةً وتفصيلًا، وكأن الآية هنا تعلن احتشادهم وهم في ذروة غضبهم

(١)انظر :الكشاف: ٣ / ٥٨٩.

للقضاء على الإسلام وأتباعه ورسوله ولا مجال أمامهم للتراجع أو النكوص أو المفاوضة، ولذلك علت أصواتهم هنا وتكررت اتهاماتهم وزادت حدة إنكارهم توافقًا مع مقام الآية الذي بدا واضحًا من خلاله تمكن رسول الله وأتباعه وتفاقم خطرهم على المشركين.

﴿المقام الخامس﴾

خروج المشركين عن مسار الحوار إلى طلب المستحيل وهو إحياء آبائهم

في هذا المقام ينسحب المشركون من المعركة ويعلنون إفلاسهم دون أن يدروا، وذلك بخروجهم عن مسار الحوار ولب القضية وهي قضية البعث بعد الموت يوم القيامة، إلى محاولة تعجيز المؤمنين بطلبهم إحياء آبائهم إن كانوا صادقين في دعواهم، ولم يقل أحد بإمكانية إحياء الموتى في الدنيا، ولذلك هربوا من الحوار عندما أحسوا بضعف موقفهم واهتزازهم أمام جلال القرآن.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الجاثية: ٢٥].

- المقصد الأعظم لسورة الجاثية:

لقد عنيت سورة الجاثية بالحديث عن آيات الله المنظورة في الكون وآيات الله المقروءة، وكيف أنه مع ذلك يوجد من ينكر تلك الآيات البينات، من الأفاكين الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم ومع ذلك يصرون على الكفر والعناد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الجاثية: ٦ – ٨].

وهي مكية وآياتها سبع وثلاثون، ومحور السورة يدور حول منزل الكتاب سبحانه بعزته وحكمته وكبريائه وكيف أنه سبحانه راعى مصالح العباد «فوضع شرعًا هو في غاية الاستقامة، لا تستقل العقول بإدراكه، أمر فيه ونهى، ورغب ورهب، فمن المكلفين من حكم عقله وجانب هواه، فسمع وأطاع، ومنهم من اتبع هواه فضل عن نور العقل فزاغ» [1].

والسورة تتعرض لقضية البعث وإنكار المشركين لها، وكيف استقبل المشركون الدعوة الإسلامية، وكيف واجهوا حججها وبراهينها القاهرة ومدى تعنتهم في ذلك،ثم «تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى، المغلقة دون الهدى وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة، ويذكرهم عذابه، ويصور لهم ثوابه» [2].

- علاقة الآية بمقصد السورة :

هذه الآية تتناول مشهدًا من مشاهد إنكار الكافرين لكتاب الله ومحاولتهم تعجيز النبي ﷺ بطلبهم الإتيان بآبائهم، وهذا الأمر لم يكن سوى مظهر من مظاهر هروب المشركين من مقارعة الحجة بالحجة، وهو امتداد طبعي لسلسلة الإنكار التي عنيت بها السورة.

فالآية الكريمة تصور معلمًا من معالم الكذب والافتراء والإفك والعناد الذي هو مقصد السورة والقطب الذي دارت عليه.

---

(١)انظر: مصاعد النظر: ٢ / ٤٧٦.
(٢)انظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٣٢١٩.

- علاقة الآية بما قبلها:

سبقت هذه الآية بالتعجب ممن اتخذ إلهه هواه فأصم الله أذنيه فلا يسمع الحق وأعمى بصره فلا يرى النور، ولذلك لم يؤمن ببعث ولا نشور، فكان من مظاهر إنكاره أنه لا يؤمن بالقرآن حين يتلى عليه بل يشتط في إنكاره فيطلب من الرسول ﷺ أن يحيي له الآباء والأجداد إن كان صادقا فيما يدعي، يقول تعالى :﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الجاثية: ٢٣ – ٢٤].

-قال في نظم الدرر:

«ولما كان هذا من قولهم عجبًا، زاده عجبًا بحالهم عند سماعهم للبراهين القطعية، فقال عاطفًا على «وَقَالُوا»: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ » أي تتابع بالقراءة من أيّ تال كان، وحاصل هذا أنه ما كان لهم حجة إلا أن أتوا بكلام معناه: ليس لنا حجة لأنه ليس فيه شبهة فضلاً عن حجة» (١).

فالآية السابقة بينت موقفهم من البعث وهذه الآية بينت موقفهم من سماع الأدلة وهو يتمثل في الهروب من الموقف بطلب المحال وهو إحياء آبائهم إن كان المؤمنون صادقين فيما يدعون.

---

(١)انظر: نظم الدرر: ١٨ /١٠٠.

- **التحليل البلاغي :**

جاءت الآية الكريمة معطوفة بالواو على قوله تعالى: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا..» والوصل بينهما ؛ للتوسط بين الكمالين فهما خبريتان والغرض من الأولى بيان إنكارهم البعث والغرض من الثانية بيان إنكارهم القرآن والبعث معًا، مما يدل على انطواء نفوسهم على الجحود والمكابرة والإنكار .

والمقام هنا هو مقام إنكار البعث وعدم الاعتراف أو الإيمان بالآخرة جملة وتفصيلًا، كيف وقد بليت العظام ورمت وذهب الآباء والأجداد وصاروا ترابًا .

ولما كان المقام كذلك جاء النظم الكريم هنا ليبين أن المشركين حين تتلى عليهم آيات الله يسلكون مسلكًا جديدًا في المراوغة والجحود والإنكار، وهو مخالف لما سبق، إنهم هنا يطلبون دليلًا حسيًا على صدق القرآن حين يخبرهم بالبعث، ويسألون رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يأتوهم الآن بآبائهم إن كنتم صادقين في ادعاءاتكم بأن القرآن من عند الله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٥].

وهذه هي حجة العاجز وقد سماها القرآن حجة تهكما بهم، والنفي بـ «مَا» يوحي بنفاد حيلهم، ودخولها على كان الناقصة الماضية يوحي بعجزهم وقصور حجتهم أو شبهتهم فهي شبهة قديمة أتى عليها الزمن، وإطلاق لفظ الحجة على الشبهة الضعيفة الواهية استعارة تصريحية أصلية فكلامهم هذا لا يعدو أن يكون شبهة باطلة لا أساس لها ولكنهم يعتقدون أنها حجة تفحم المؤمنين وتعجزهم وتضعهم في مقام الحرج والضيق وضعف الموقف.

- قال الإمام الزمخشري:

«فإن قلت: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله: «تحيّة بينهم ضرب وجيع» كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد: نفى أن تكون لهم حجة البتة» (١).

«وإنما لم يكن قولهم: «ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ» حجة ؛ لأن القضية ليست إحياء الموتى في الدنيا ولم يقل به أحد، وليس مطروحًا لأنه عبث، وإنما إحياء الموتى يوم البعث ويوم الحساب ويوم الجزاء، وهذا هو موضع المنازعة معهم» (٢).

وقد بنيت الجملة على أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء حيث قصر حجتهم المزعومة على قولهم: «ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ...»، قصرًا حقيقيًا مجازيًا ؛ لأنهم كانت لهم حجج أخرى بلا شك ومطالب متعددة، لكنه هنا يضع هذه الحجة في موضع الاهتمام لإبراز تفاهتها وحماقة أصحابها وهي شغل الكافرين الشاغل أعني قضية البعث، وقد جاء القصر بطريق النفي والاستثناء ليبين تمحلهم الحجج واختلاقهم المراوغة وتوغلهم في الجحود والنكران.

- قال في التحرير والتنوير:

«وفي قوله: «مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ» تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البينة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث» (٣).

---

(١)انظر: الكشاف: ٤ / ٢٩١، ٢٩٢.

(٢)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان ا. د محمد أبوموسى: ٢١١ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

(٣)انظر: التحرير والتنوير: ٢٥ / ٣٦٤.

وعدل عن التعبير بالمصدر وهو القول إلى التعبير بأن والفعل؛ للدلالة على توغلهم في الإنكار منذ القدم فقد درجوا على ما وجدوا عليه الآباء والأجداد.

وتلحظ اختيارهم فعل الأمر «ٱئْتُواْ» والغرض منه التعجيز دون فعل المجيء مثلاً ؛ تهكمًا بالمؤمنين وكأنهم يقولون لهم: إذا كان البعث بتلك السهولة عندكم كما تزعمون فأحيوا لنا آباءنا.

وقد دلوا على استحالة ذلك ومن ثم انتفى صدقكم أيها المسلمون فقالوا: إن كنتم صادقين هكذا بإن الشرطية التي تدل على عدم القطع أو الجزم بوقوع الشرط وهو تعريض منهم بكذب المؤمنين واستبعاد لصدقهم «فهؤلاء المشركون قد اعتقدوا أن لا حياة بعد الموت استنادا للأوهام والأقيسة الخيالية، وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه، لم يعارضوها بما يبطلها، بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون: إن كان البعث حقًا فأتوا بآبائنا إن صدقتم» [(١)].

لكن القرآن الكريم كعادته يلقن الرسول ﷺ الرد عليهم يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦ ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فأسند الإحياء و الإماتة لله أي يحييكم في الدنيا ثم يميتكم ثم يجمعكم بالبعث والنشور إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ليقطع بذلك أعناق الكافرين في تعنتهم وليبين أن ما أنكروه من أمر البعث كائن لا شك فيه وهو أمر يقيني لكن أكثر الناس لا يؤمنون به لجهلهم وعدم علمهم.

---

(١)انظر: الجملة الشرطية الواقعة في خواتيم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية ا. د / رفعت إسماعيل السوداني: ١٠٥.

وهكذا يتجه النظم هنا إلى طريق آخر تبعًا لاختلاف المقام، فقد سلك المشركون هنا طريق التعجيز للنبي ﷺ والمؤمنين، وتوغلوا في عمق القضية التي تشغلهم والتي اهتم بها القرآن ودعاهم إلى الإيمان بها وهي قضية البعث، ليصبوا جام غضبهم، معلنين أن عدم إيمانهم بالقرآن إنما يرجع إلى عجزكم أنتم عن تحقيق ما وعدنا به من البعث، وتلك لعمري شبهة الضعفاء الحيرى المفلسين، ولذلك رد الله عليهم بأن هذا الأمر لا يقدر عليه بشر وإنما يتولاه الله.

﴿المقام السادس والأخير﴾

وصف الكافرين للحق عند سماع القرآن بالسحر المبين

في هذا المقام يصف الكافرون القرآن وهو الحق عندما تتلى عليهم آياته البينات بأنه سحر مبين، وهو وصف ينضوي على تأثرهم بكتاب الله أولًا، ثم حماقتهم حين عميت أبصارهم عن التمييز بين الحق الواضح وبين السحر المبنيّ على الخيالات والأوهام.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[الأحقاف: ٧].

- المقصد الأعظم لسورة الأحقاف:

هي سورة مكية وآياتها خمس وثلاثون آية، وقد بدأت ببيان قدرته سبحانه في خلق السماوات والأرض ومع ذلك تجد الصد والإعراض من الكافرين ،ثم بينت ضعف شركائهم وضلال أتباعهم وعداوتهم لهم يوم القيامة .

«ومحور السورة يدور حول قضية الثواب والعقاب المقتضيين للبعث والحساب،والمعنى الأم في السورة الكريمة ينطلق من قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الأحقاف: ٣]. **فالطرفان وهما الكفر بالله ورد نبوة المصطفى ﷺ ليس**

في السورة كلمة واحدة إلا وهي راجعة إليهما» [1].

«ومقصودها: إنذار الكافرين بالدلالة على صدق الوعد في قيام الساعة ، اللازم للعزة والحكمة الكاشف لها أتم كشف، بما وقع الصدق في الوعد به من إهلاك المكذبين» [2].

دون أن يعجزه سبحانه شيء من ذلك، ودليل ذلك ما حدث لقوم هود عليه السلام من إهلاك الله لهم ودفنهم تحت أحقافهم، ففي السورة تعريض للمشركين إن هم ساروا على درب أسلافهم في التكذيب والجحود فسيحل بهم ما حل بأسلافهم من العذاب .

- علاقة الآية بمقصد السورة:

الآية الكريمة هنا تبين وصف المشركين للقرآن بأنه سحر مبين، فهي بذلك تبرز مشهدًا من مشاهد إنكارهم الحق وتكذيبهم بالإسلام، الذي ساروا فيه على نهج أسلافهم من الأمم السابقة، حيث حادوا عن الحق إلى الضلال، وعدلوا عن الهدى إلى طريق العماية والخسران، ومع ذلك فإنهم لم يبلغوا مبلغ أسلافهم في التمكين والقوة غير أن عذاب الله لا تقف أمامه قوة، وانتقامه لا يمنعه جاه ولا مال، فاحذروا يا أهل مكة من بطش الله بكم وكونوا على وجل إن تماديتم في غيكم أن يحل بكم العقاب .

إن الآية هنا تبين إنكارهم للنبوة وهم يعلمون صدق صاحبها لكنهم كفروا بها وطمسوا معالمها وأعرضوا عما أنذروا به من آيات الله البينات حين رفضوا الحق ووصفوه بالسحر المبين، فما هي في حقيقة الأمر إلا امتداد طبعي للمعنى الأم وهو محور السورة وهو

---

(١)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان أ. د محمد أبوموسى: ٣٢٠.
(٢)انظر: مصاعد النظر: ٢/ ٤٨٠، ٤٨١.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣ ﴾[الأحقاف: ٣].

- علاقة الآية بما قبلها:

سبقت هذه الآية ببيان ضلال المشركين في دعائهم من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، وتأكيد عداوة الآلهة المزعومة في الدنيا للمشركين وكفرهم بهم وتنصلهم منهم يوم القيامة:قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦ ﴾[الأحقاف: ٥ – ٦]، وكأنها تمهد للآية الكريمة موطن الشاهد بفساد المنهج وضلال المقصد وعمى القلب الذي حل بالمشركين حين عبدوا غير الله أو أشركوا معه غيره من آلهتهم المزعومة ثم تأتي الآية الكريمة لتتعجب من حال هؤلاء الكافرين في قبولهم الضلال ورفضهم الحق والهدى والنور:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧ ﴾[الأحقاف: ٧].

- قال في مفاتيح الغيب:

«واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد تكلم في النبوة وبين أن محمدًا ﷺ كلما عرض عليهم نوعًا من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر مبين»(١).

(١)انظر: مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٨.

- **التحليل البلاغي**:

بدأت الآية الكريمة كسائر أخواتها بقوله تعالى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» وقد وصلت بالواو عطفًا على قوله تعالى: « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ» والوصل للتوسط بين الكمالين فالأولى خبرية معنى وإن كانت إنشائية من حيث اللفظ، إذ المعنى لا أحد أضل من ذلك، والثانية خبرية لفظًا ومعنى؛ والجمع بينهما يشير إلى مظهر جديد من مظاهر الضلال عندهم وهو قولهم للحق هذا سحر مبين.

«والمناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه أن الأول عبد غير المعبود بحق، فكان أضل من ضل، والثاني رد الحق الظاهر البين وقال هو سحر مبين، فهو كافر ككفر الذي كفر بالله، الأول كفر بالله والثاني كفر برسوله» (١).

وقد جاء جواب الشرط هنا فعلًا ماضيًا بصيغة القول منسوبًا إلى الكافرين: «قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ» وكان مقتضى الظاهر أن يقول: «قالوا لها»أي للآيات البينات، لكنه أظهر في موضع الإضمار في الموضعين ؛ «للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلوّ بالحق لَمَّا جاءَهُمْ أى: بادروه بالجحود ساعة أتاهم، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر. ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سموه سحرًا مبينًا ظاهرًا أمره في البطلان لا شبهة فيه» (٢).

فتعريف المسند إليه بالموصولية للإشارة والنص على سبب قولهم وهو أنهم توغلوا في الكفر والضلال، واشتهروا به .

---

(١)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان أ. د محمد أبوموسى: ٣٤٩.
(٢)انظر: الكشاف: ٤ / ٢٩٦.

وجملة الصلة «كَفَرُواْ» تشير إلى تمالئهم على الكفر واجتماعهم عليه «واللام في للحق، لام العلة، أي لأجل الحق...وفي قوله: «لَمَّا جَآءَهُمْ» تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عنادًا وظلمًا، ووصفوه بمبين، أي ظاهر، إنه سحر لا شبهة فيه» [1].

والمراد بالحق القرآن أو الإسلام كله فقد رفضوه وادعوا أنه سحر مبين، فلم يكتفوا بجعله سحرًا وإنما وصفوه بأنه بين السحرية ظاهرها لا تخفى على أحد يستمع إليه، وهذا وحده دليل على شدة تأثرهم وانفعالهم بالقرآن، لكنهم ينكرون الحق ويجحدونه.

وكلمة الحق كلمة قوية مزلزلة لها وقعها في النفوس وتأثيرها في القلوب، وفيها تعجيب وتمهيد لشناعة وصفهم للحق بأنه سحر مبين ؛ لأن السحر أوهام وتخيلات وكلها من وادي الباطل الذي هو نقيض الحق .

وما في «لَمَّا» الحينية من التشديد والمد يوحي بطول توغلهم في الضلال وتدل على عمق الزمن وتراخيه وأنه جاءهم بعد عناء فقد تطاول عليهم الزمن وهم يعيشون في جاهلية عمياء تتعطش لنور الحق وها هو قد جاءهم بما يحمله المجيء من صعوبة ومشقة تتناسب مع عبء الدعوة وثقل الرسالة ومشقة التكليف.

ثم جاء مقول القول: «هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» وهي جملة خبرية الغرض منها تنفير العامة من السماع لمحمد والإنصات للقرآن لئلا يستولي على قلوبهم، فهم يجتهدون في صرف الناس عن الإسلام، وقد جاءت خالية من التأكيد مع أن المقام يقتضي ترافد المؤكدات، فالخبر

---

(١)انظر :البحر المحيط: ٩ /٤٣٣.

إنكاري والمخاطبون وهم المؤمنون لا شك ينكرون كلامهم ووصفهم القرآن بالسحر؛ لكنهم أرسلوا الخبر خاليًا من المؤكدات؛ تنزيلًا للمنكر منزلة غير المنكر خروجًا بالخبر على خلاف مقتضى الظاهر؛ للإشارة إلى صدقهم في ادعائهم وأن هذه القضية من المسلمات التي لا تحتاج إلى تأكيد .

وقد جاء المسند إليه معرفًا باسم الإشارة «هَذَا» لتمييز المشار إليه أكمل تمييز وفي الإشارة إلى الحق وهو القرآن إحضار لصورته وهو يتلى عليهم ليتيقن العوام والسوقة من صدقهم، وجاء المسند وهوالخبر نكرة مقيدة بالوصف «مُّبِينٌ» ليبرز ظاهرية سحره وعدم خفائها بحيث يدركها كل من يسمع القرآن، وهذا وحده كاف لفضحهم وكشف دخائل نفوسهم وكذبهم فيما يدعون، إذ كيف يكون سحرًا وهو من جنس ما برعتم فيه، وأنتم أعلم الناس بإعجازه وبلاغته .

ولما كان هذا القول صادرا من المشركين عند سماع القرآن وفيه اتهام له بالسحر عدل عن هذا الاتهام إلى اتهام أبشع منه وأشد وهو اتهامهم رسول الله ﷺ بافترائه على الله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾[الأحقاف: ٨].

«وقد سلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بالواو لأن الإضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله، وأن المعنى: دع قولهم: هذا سحر مبين واستمع لما هو أعجب وهو قولهم: افتراه، أي افترى نسبته إلى الله ولم يرد به السحر...

والاستفهام الذي يقدر بعد أم للإنكار على مقالتهم. والنفي الذي يقتضيه

الاستفهام الإنكاري يتسلط على سبب الإنكار، أي كون القرآن مفترى وليس متسلطًا على نسبة القول إليهم لأنه صادر منهم وإنما المنفي الافتراء المزعوم» [1].

وهنا يظهر ضعف موقفهم وقلة فطنتهم وعماية وحهتهم،فها هم يترددون في وصف القرآن، تارة بالسحر وأخرى بأنه مفترى افتراه محمد، فرد عليهم: «قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ»، على سبيل الفرض، فالله حسبي في ذلك، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، وهو أعلم بي فلا تملكون لي من الله شيئًا في رد عقوبة الله عني ثم استسلم إلى الله واستنصر به فقال: هو أعلم بما تفيضون فيه: أي تندفعون فيه من الباطل،من وصفكم القرآن تارة بالسحر وتارة بالمفترى وأخرى بأساطير الأولين «كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ» أي يشهد لي بالتبليغ ،ويشهد عليكم بالتكذيب. وهو الغفور الرحيم: «عدة لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعار بحلمه تعالى عليهم، إذ لم يعاجلهم بالعقاب، إذ كان ما تقدم تهديدًا لهم في أن يعاجلهم على كفرهم» [2].

- قال صاحب الظلال:

«رد فيه تحذير وترهيب. وفيه إطماع وتحضيض. يأخذ على القلب مسالكه، ويلمس أوتاره. ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة، وادعاءاتهم العابثة. وأنه في ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون» [3].

ويمضي السياق بهم معلنًا أن ما جاء به ليس بدعًا فيه، وإنما شأنه في ذلك شأن سائر

---

(١)انظر: التحرير والتنوير: ٢٦ /١٤.
(٢)انظر: البحر المحيط: ٩ / ٤٣٤.
(٣)انظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٣٢٥٧.

الأنبياء قبله:﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الأحقاف: ٩].

فهو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه. واثقًا بربه، مستسلما لإرادته، مطيعًا لتوجيهه، وهو لا يعلم الغيب ولا يتطلع لمعرفته ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وليست وظيفته سوى الإنذار وتبليغ رسالة ربه.

ثم يواجههم بشاهد قريب، لشهادته قيمتها، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأحقاف: ١٠].

«وقد تكون هذه واقعة حال، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله، بحكم معرفته لطبيعة التوراة فآمن ، وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله بن سلام، لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة، وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيدًا لنزولها في شأن عبد الله رضي الله عنه. كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه...

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها. فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي» [1].

ثم يستمر السياق في بيان تفاهاتهم وإصرارهم على الباطل واحتقارهم المؤمنين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ

(١)انظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٣٢٥٧.

فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾[الأحقاف: ١١ – ١٢].

الواضح هنا أن السجال بين المشركين والمسلمين لم يقتصر على وصف القرآن بالسحر عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، لكنه امتد ليشمل وصفهم له بالافتراء، ولكنه لا يترك لهم مجالًا للاتهامات الباطلة فسرعان ما يلقمهم بالرد المفحم، لكنهم لا يفترون يطلقون الاتهامات مشككين فيه، فلو كان خيرًا ما سبقونا إليه، لاعتقادهم أنهم أرفع منهم منزلة ومكانة وظنهم أن التفاضل إنما يكون بالمال والجاه والسلطان والحسب، ولكنه سرعان ما يرد عليهم ادعاءاتهم الباطلة ويؤكد صدق ما جاء به رسولنا الكريم.

﴿مقامان مشابهان﴾

وردت آيتان صدرت إحداهما بقوله تعالى: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا » دون الوصف «بَيِّنَـٰتٍ» ، وهي في سورة الأنفال يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنفال: ٣١].

والثانية صدرت بقوله تعالى: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا » بإفراد الضمير في «عليه»، وبدون الوصف «بَيِّنَـٰتٍ» وهي في سورة لقمان، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾[لقمان: ٧].

وهاتان الآيتان ليستا داخلتين معنا في هذا البحث؛ حيث قُيّد موضوع البحث بقوله تعالى: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا» وحتى يكون الموضوع جامعًا مانعًا لم نتعرض لتحليلهما بلاغيًا .

غير أنني رأيت إتمامًا للفائدة أن نعرج عليهما بذكر مقام كل آية وما يتميز به من سمات بلاغية توافق المقام لا توجد في سواه، لاسيما في عدم تقييد الآيات بالوصف «بَيِّنَـٰتٍ».

أما آية الأنفال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنفال: ٣١].

فقد وردت في مقام الحديث عن مكر المشركين برسول الله وتشاورهم في دار الندوة من أجل حسم أمره بعد مبايعة الأنصار له ﷺ، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ثم بين أنهم حين يتلى عليهم القرآن يقولون معرضين: «قَدْ سَمِعْنَا» والملاحظ هنا عدم ذكر الوصف «بَيِّنَاتٍ» والسر في ذلك والله أعلم هو موافقة مقام النزق والطيش والخفة وعدم التريث الذي حل بالقوم وعلى رأسهم النضر بن الحارث الذي ادعى أنه يستطيع أن يحكي مثل قصص القرآن فما هي إلا أساطير الأولين .

فكأنهم لتسرعهم وطيشهم لم يتدبروا القرآن وإن كانت آيات القرآن بينات دائمًا، ولذلك جاء ردهم موافقًا لهذا النزق: «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ».

تلمح هنا الإعراض والتسرع وعدم الفهم والضيق بآيات القرآن الكريم، لذلك لم تكن لديهم بينات أي جليات واضحات كما في الآيات السابقة ؛ لضيق نفوسهم بسماعها، ونفورهم منها، واكتناز نفوسهم فرقا مما يتلى عليهم، ومما يؤكد النزق والطيش قولهم: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ».

- قال في الكشاف :

«فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يباتنهم واحد، فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله

ﷺ، وتهالكهم على أن يغمروه» [1].

وهذا دليل تفاهتهم وعجزهم ولذلك وصفوه بوصف يؤكد كذلك تمام طيشهم ونزقهم وخفتهم وبلادتهم في فهم القرآن فقالوا: «إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » فقارنوا قصص القرآن المعجز القاهر في بيانه بأساطير الأولين من الأمم السابقة.

كل هذا رشح حذف الوصف: «بَيِّنَٰتٍ» ، فإذا نظرنا إلى الآية التالية لهذه الآية نجدها تؤكد طيشهم وغباءهم وبلادتهم حين قالوا:﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال: ٣٢].

فهم ما زالوا حديثي عهد بالسجيل الذي أمطر على أبرهة، وتلك حماقة كبرى أن يطلبوا نزول الحجارة عليهم من السماء أو إتيان عذاب أليم.

«وعن معاوية ﷺ أنه قال لرجل من سبإ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق «إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً » ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له» [2].

لكن بركة المصطفى ﷺ شملت كل الناس حتى المشركين فما كان الله ليعذبهم وفيهم رسول الله قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(١)انظر: الكشاف: ٢ / ٢١٦.
(٢)انظر: الكشاف: ٢ / ٢١٧.

مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال: ٣٣].

وأما آية لقمان: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾[لقمان: ٧].

فقد سبقت بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[لقمان: ٦].

«والأصح في المراد بقوله « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ » أنه النضر بن الحارث فإنه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات فيقصها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وإسفنديار وبهرام» [1].

والسياق يسير هنا بالإفراد في الضمير « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ »، لأنه المقصود أعني النضر بن الحارث لعنه الله، وإن كان أهل مكة على شاكلته سواء، لكنه المتعهد بذلك لهم، الصاد عن سبيل الله بما يقصه عليهم من تفاهات، فخص بالذكر هنا إمعانًا في التنكيل به، وإبرازًا لدوره في الصد عن سبيل الله .

والسياق هنا غير معنيّ بوصف الآيات بأنها بينات، وإنما الذي يُعنى به هو أن يبين أنه بمجرد التلاوة: «وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ».

«فهو لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسًا: تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو

---

(١)انظر: التحرير والتنوير: ١٤٢/٢١.

سامع «كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا » أي ثقلًا ولا وقر فيهما» [1].

السياق هنا منصرف إلى التلاوة لا إلى وصف الآيات، فحالة الإعراض التي كان عليها هذا الكافر والكبر والتجاهل لآيات الله حين تتلى عليه، كأنه أصم لا يسمع، رشحت الاهتمام بذكر الآيات دون وصفها بأنها بينات، فآيات القرآن وإن كانت بينات في كل حال، إلا أن الصمم الذي مُني به هذا الكافر وعمى البصيرة والإعراض والتجاهل وعدم الاكتراث، كل ذلك رشح إسقاط الوصف «بَيِّنَٰتٖ» ولذلك ختمت الآية بهذه الاستعارة التهكمية «فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ » هذا والله أعلم .

(١)انظر: الكشاف: ٣ / ٤٩٢.

﴿الخاتمة﴾

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على صاحب الحوض وصاحب الشفاعة، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،،،،

فبعد أن عشنا في رحاب تلك البساتين الندية، والنفحات الإلهية، مع كتاب ربنا، من خلا ل تلك الآيات المباركات مقامًا ودراسة نظمية، يمكن أن نرصد بعض النتائج التي أسفر عنها البحث، وهي تتمثل فيما يأتي :

أولًا: مع اتفاق تلك الآيات في صدر كل آية وهو «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ» إلا أننا وجدنا اختلافًا في المقامات، فتارة يكون المقام طلب تغيير القرآن أو تبديله، وتارة يكون احتقارًا للمؤمنين وسخرية بهم، وتارة يكون تجهمًا وعبوسًا وشرًا ومنكرًا يبدو على وجوه الكافرين، وتارة يكون إثارة لنعرة الصد عن دين الآباء واتهام القرآن بالإفك والسحر، وتارة يكون بمحاولة الهروب بتعجيز المؤمنين بطلب الإتيان بآباء الكفار، وتارة يكون بوصف الحق بأنه سحر مبين .

ثانيًا: تنوعت الإجابات والردود تبعًا لتنوع المقامات، فحيث طلبوا تبديل القرآن وتغييره، كان الجواب بتبرؤ رسول الله ﷺ من الحول والطول والقدرة على ذلك، فما هو إلا مبلغ عن ربه متبع لما يوحى إليه، ومع ذلك يخشى عذاب الله إن عصاه .

وحين يكون المقام احتقارًا للمؤمنين ومقارنة بين حالهم وحال الكافرين، يكون الجواب بأن مقياس الأفضلية عند الله ليس بالمال ولا بالجاه، فكم من القرون أهلكها الله

كانت أحسن منكم يا أهل مكة أثاثًا وهيئة، فهو قادر على أن يهلككم متى شاء.

وحين يكون المقام منكرًا يظهر أثره في وجوه الكافرين فرقًا مما يتلى عليهم من آيات كتاب ربنا، يكون الرد بتوعدهم بمنكر أفظع مما بدا على وجوههم ينتظرهم في دار الجزاء ألا وهو النار.

وحين يكون المقام بإثارة النعرات الجاهلية بالانتماء لدين الآباء واتهام القرآن بالكذب والسحر، يأتي الجواب بتجهيلهم بعدم القراءة، فلم يرسل إليهم قبل رسول الله نذير، ولا يترك توعدهم بالعذاب على جحودهم كما فعل بأسلافهم ممن هم أشد منهم، فما بلغ هؤلاء معشار ما آتاهم الله.

وحين يكون المقام هروبًا من المواجهة باختلاق حجة واهية تتمثل في طلب إحياء الآباء، يأتي الرد قاسيًا متوعدًا لهم بأن الله سيبعثهم يوم القيامة ويدخلهم النار.

وحين يكون المقام وصفهم الحق بأنه سحر مبين، والحق يشمل القرآن والرسول والإسلام كله، يأتي الجواب بإضراب انتقالي عن قولهم كأنه قول لا يعبأ له، ليصف هزلًا آخر من مهاتراتهم وهي قولهم «ٱفۡتَرَىٰهُ» وهنا يستفيض في الرد عليهم، دفاعًا صريحًا عن شخص رسول الله ﷺ؛ لأنه اتهام مباشر وصريح لأمانته ﷺ مبينًا أنهم لا يملكون دفاعًا عنه إن كان قد افتراه، فهو سبحانه الذي يتولى حساب العباد، وأنه ما كان بدعًا من الرسل فيما جاء به، وقد لبث فيهم عمرًا مديدًا وعرفوا صدقه وأمانته ولم يحدثهم بما يحدثهم به الآن، ولو شاء الله ما اختصكم بهذا الفضل ولا بعثني إليكم .

وهكذا تجد التلاؤم المعنوي بين المقامات والاتهامات والردود والأجوبة تناسبًا وتوافقًا يتلاءم مع عظمة هذا الكتاب وبلاغته.

ثالثًا: تبعا لتغير المقام وجدنا اختلافًا في النظم وهـذا شيء بـدهي، وقـد تمثـل هـذا الاختلاف في موافقة نظم كل آية لمقامها شدة وقوة ومحاورة واحتجاجًـا بوسـائل الـنظم وفنون البلاغة المتعددة التي تخدم السياق وتلائم المقـام في انـسجام تـام، وتوافـق منقطـع النظير إلا في كتاب ربنا وقد سبق بيان ذلك في ثنايا البحث بما يغني عن إعادته هنا.

رابعًا: بدت الجوانب النفسية المختلفة للكافرين التـي يـشعرون بهـا عنـد سـماعهم القرآن، فقد انعكست على صفحات الآيات متمثلة في تغير الوجه وبدو إثر المنكر عليهم، ومحاولتهم السطو بالمؤمنين، وظهر ضعف موقفهم بهروبهم مـن الحـوار وخـروجهم إلى دائرة أخرى، وبدت أفكارهم المشوشة وردودهم التي تعلـن عـن تلجلجهـم واخـتلاط الأفكار لديهم، ومحاولة الانتصار بظاهر حالهم من الغنى والجاه واحتقار المؤمنين، وأخيرًا انفلات زمامهم من خلال اتهام القرآن بالسحر والكـذب المفـترى وإثـارة نعـرة الانـتماء لدين الآباء والأجداد.

وكلها في حقيقة أمرها صفات نفسية قبيحة تنم عن خبث أصحابها وضآلة المعرفـة لديهم، وإفلاس الحجة، وضعف الموقف.

خامسًا: كثر أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء وذلك لموافقته لطبيعـة تلـك المعركـة الـدائرة بـين الكـافرين والمـؤمنين والقائمـة عـلى الجحـود والنكـران والمراوغـة والإفلاس، بما فيه من قوة وشدة وتأكيد، بينما اختفى المجاز وبدت الحقيقة واضحة، لأنه في مقام تقرير حقائق وقعت، ورصد أحداث تمت عند تلاوة القرآن، فلا مجال هنا للتجوز وإنما التعبير الحقيقي هو الأقوى هنا للنهوض بالمراد.

سادسًا: ظهر من خلال البحث أن الآيات هنا وصـفت بــ«بَيِّنَٰتٍ» لبيـان حمـاقتهم

وجهلهم وغبائهم حين لم يفهموا قدرها مع أنها واضحات جليات، وهذا وحده دليل كاف لاستحقاقهم العذاب، بينما أسقط الوصف «بَيِّنَٰتٍ» في آيتي الأنفال ولقمان الملحقتين؛ وذلك تناسبًا مع ما كانوا عليه من نزق وخفة وطيش وسرعة في السماع وإعراض عنها وتهكم بها وتكبر عن سماعها حتى صار سماعهم كلا سماع، ولذلك ناسبه التركيز على التلاوة لا على الوصف.

سابعًا: يلاحظ أن ردود أفعال الكافرين في كل الآيات دارت حول القرآن والرسول ﷺ والمؤمنين والبعث، فهذه القضايا الأربعة هي شغلهم الشاغل، وعليها دارت رحى المعركة بين الكفر والإيمان، كما يلاحظ أن الرد عليهم دائمًا جاء بتلقين رسول الله ﷺ من قبل الله، وفي هذا إعلاء لقيمة الاتباع، والنطق بلسان الوحي، فلم يتسرع رسول الله ﷺ بالرد عليهم ما لم يأته الرد من السماء، وفي ذلك تأكيد بالغ على أمانته وصدقه ﷺ.

ثامنًا: تنوع وصف الكافرين في الآيات بين: «ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا» و«ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» أوالتعبير عنهم بضمير الغيبة «واو الجماعة: قالوا»، ففي الوصف الأول بيان لجحودهم بالله وإنكار يوم اللقاء وهو يوم القيامة، وفي الوصف الثاني بيان لجحودهم بالرسول وبالقرآن وبالنعم التي غمرتهم، وفي ضمير الغيبة إشارة إلى إخفائهم من الوجود فوجودهم كلا وجود، ثم في التعبير عنهم بصيغة الجمع إشارة إلى اجتماعهم على الكفر وتمالؤهم على الإسلام، ووراء ذلك كله إلماح إلى جوابهم المتوقع ورد فعلهم الخبيث.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

﴿ثبت المصادر والمراجع﴾

١ ـ الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم د. محمود موسى حمدان – مكتبة وهبه – الطبعة الأولى – ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٢ ـ أحكام القرآن لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي «المتوفى: ٣٧٠هـ» تحقيق: محمد الصادق قمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف – دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤٠٥ هـ.

٣ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم «تفسير أبي السعود»– أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى «المتوفى: ٩٨٢هـ» – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤ ـ أساس البلاغة للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر مايو ٢٠٠٣م.

٥ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي «المتوفى: ١٣٩٣هـ»– دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

٦ ـ إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش «المتوفى: ١٤٠٣هـ»– دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، «دار اليمامة – دمشق – بيروت»، «دار ابن كثير – دمشق – بيروت» الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

٧ ـ آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان أ. د محمد أبوموسى

- مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

٨ ـ الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني «المتوفى: ٧٣٩» تحقيق الدكتور عبد القادر حسين - مكتبة الآداب.

٩ ـ البحر المحيط في التفسير - أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي «المتوفى: ٧٤٥هـ» تحقيق: صدقي محمد جميل - دار الفكر - بيروت - الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

١٠ ـ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي «المتوفى: ١٣٩٣هـ»- الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤ هـ.

١١ ـ تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي «المتوفى: ٧٧٤هـ» تحقيق: سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٢ ـ الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي تحقيق: د فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

١٣ـ الجملة الشرطية الواقعة في خواتيم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني - الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٤ ـ خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د. محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - الطبعة الخامسة - ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٥ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمود محمد شاكر - مطبعة المدني ط ثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

١٦ ـ فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي «المتوفى: ٩٢٧ هـ» اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب – دار النوادر «إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلامِيّة – إدَارَةُ الشُؤُونِ الإسلاَمِيّةِ» الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

١٧ـ فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني «المتوفى: ١٢٥٠هـ»– دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٤ هـ.

١٨ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي «المتوفى: ١٣٨٥هـ»– دار الشروق – بيروت– القاهرة – الطبعة السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.

١٩ ـ كاد في الذكر الحكيم الموقع والدلالة د عبد الباري طه سعيد . مطبعة الإخوة الأشقاء ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٢٠ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله «المتوفى: ٥٣٨هـ»– دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٢١ ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ويُسَمَّى: «المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى» – إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي «المتوفى: ٨٨٥هـ» مكتبة المعارف – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.

٢٢ ـ المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني «المتوفى: ٧٩٢هـ» تحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٢٣ ـ مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري «المتوفى: ٦٠٦هـ»- دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٢٤ ـ مفتاح العلوم للسكاكي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩٠م.

٢٥ـ النحو الوافي لعباس حسن - الناشر: آوند دانش - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢٦ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي «المتوفى: ٨٨٥هـ»- دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

المقدمة .... : ١٣

عرض الآيات .... : ١٦

المقام الأول

طلب المشركين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله .... : ١٨

المقصد الأعظم لسورة يونس عليه السلام .... : ١٩

علاقة الآية بمقصود السورة .... : ٢٠

علاقة الآية بما قبلها .... : ٢٠

التحليل البلاغي .... : ٢١

المقام الثاني

سـخرية الكـافرين مـن المـؤمنين واحتقـارهم وادعـاؤهم الأفـضلية عليهم : ٣٧

المقصد الأعظم لسورة مريم .... : ٣٧

علاقة الآية بمقصد السورة .... : ٤٠

علاقة الآية بما قبلها .... : ٤١

التحليل البلاغي .... : ٤٢

المقام الثالث

تجهم الكافرين وظهور المنكر على وجوههم عند سماع القرآن : ٥١

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المقصد الأعظم من سورة الحج ..... :	٥١
علاقة الآية بمقصد السورة ..... :	٥٢
علاقة الآية بما قبلها ..... :	٥٣
التحليل البلاغي ..... :	٥٤
المقام الرابع	
إثارة نعرة الصد عن دين الآباء، واتهام القرآن بأنه إفك مفترى، وسحر مبين ..... :	٦٤
المقصد الأعظم لسورة سبأ ..... :	٦٤
علاقة الآية بمقصد السورة ..... :	٦٥
علاقة الآية بما قبلها ..... :	٦٥
التحليل البلاغي ..... :	٦٧
المقام الخامس	
خروج المشركين عن مسار الحوار إلى طلب المستحيل وهو إحياء آبائهم .. :	٧٥
المقصد الأعظم لسورة الجاثية ..... :	٧٥
علاقة الآية بمقصد السورة ..... :	٧٥
علاقة الآية بما قبلها ..... :	٧٧
التحليل البلاغي ..... :	٧٨
المقام السادس والأخير	

الموضـــــــــــوع	الصفحة
وصف الكافرين للحق عند سماع القرآن بالسحر المبين ..... :	٨٢
المقصد الأعظم لسورة الأحقاف ..... :	٨٢
علاقة الآية بمقصد السورة ..... :	٨٣
علاقة الآية بما قبلها ..... :	٨٤
التحليل البلاغي ..... :	٨٥
مقامان مشابهان ..... :	٩١
الخاتمة ..... :	٩٦
ثبت المصادر والمراجع ..... :	١٠٠
فهرس الموضوعات ..... :	١٠٤